

الأولة
مصر

إيهاب قاسم

عن هوية مصر ومستقبلها

25 عاماً مع الكتّاب والقرّاء

الدار المصرية اللبنانية

مصر الأولة

عن هوية مصر ومستقبلها

قاسم ، إيهاب .
الأولة مصر : عن هوية مصر ومستقبلها / إيهاب قاسم
. ــ ط1. ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2010.
192 ص ؛ 21 سم
تدمك : 8 - 620 - 427 - 977 - 879
1 ــ مصر ــ الأحوال الاجتماعية ــ مقالات محاضرات.
أ ــ العنوان .   309.6204
رقم الإيداع : 15342 / 2010

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : رمضان 1431 هـ ــ سبتمبر 2010 م

الأولة مصر

عن هوية مصر ومستقبلها

إيهاب قاسم

الدار المصرية اللبنانية

الإهداء

إلى أبنائي وأبنائكم

علنا نرسم مستقبلاً أفضل لهم

وللوطن العزيز مصر

شكر

إلى الأصدقاء

أيمن رشدي وطارق ثابت ،

لتشجيعهم الدائم ونصائحهم القيمة .

إلى الأستاذ مصطفى بيومي لآرائه و إسهاماته .

شكرًا جزيلا .

الفهرس

مقدمة في النظرية !!

أنــا مين ، أنا فين ، أنا ازاي ، أنا بكام ؟؟ كنا نضحـك كثيرًا ونحن صغار علـى فؤاد المهندس وهو منعكش شـعره ورافع حواجبـه زي رقم تمانية ، وتمرجيِّـة الســرايا الصفرة يقودونه إلى مستشـفى الأمـراض العقلية ، وهو يتمتـم بهـذه الكلمات القليلة التـي تثبت للطبيب بما لا يدع مجالًا للشـك أنـه قد فقد ذاكرته ، وتاريخه ، وإحساسـه بالزمان والمـكان ، وبالتالي فقد عقلـه وأصبح مكانه الوحيـد عنبر العقلاء في الســرايا الصفرة حيث يمكنه أن يتعايش ويتفاهم بحرية وهدوء مع سُـمعة وعنتر المخنث والعمة شفيقة المسترجلة اللي عندها شعرة ساعة تروح وساعة تيجي .

يبدو لي أن هذا هو حالنا الآن في مصر؛ فتاريخ مصر والمصريين أصبح مجهـولًا بل ومحرمًا ؛ فالانتماء مشـتت ، والإحسـاس بالزمن الذي نعيش فيه مفقود ، وفهمنا للحضارة الإنسـانية مـن نوعية الفهم الترللي بتاع آمان يا لاللي.

أيُّ حاضر يعيشه وطن يفقد هُويته؟ وأي مستقبل نرجوه لمصر والمصريين؟

لقد كرهنا حضارتنا وكفرناها فقطعنا صلتنا بها وتبرأنا منها .

أصبح مستقبلنا غائمًا ومشوشًا حتى أن معظم المصريين أصبحوا يعتقدون أن مستقبلهم يبدأ بعد النزول إلى القبر .

سيوف القتل والحسبة مسلطة على الرقاب والأفكار ، فالتفكير أصبح مرادفا للتكفير .

رهنَّا مستقبل مصر وحلول مشكلاتها بالعنقاء والخل الوفي ، فإما أن تقوم الدولة العربية المتحدة أو دولة الخلافة الإسلامية وإلا فعلى مصر السلام .

ربطنا رخاء مصر بما يجود به الآخرون .

رفضنا الحضارة الإنسانية فخاصمتنا الإنسانية .

و كرهنا إخوان الوطن .

إذا ، فماذا تبقى من مصر ؟

منذ بضعة سنوات سمعنا أن البعض قد أطلق عبارة شهيرة تفيض بالحكمة والأمل والتبتل والتطهر والإيمان ، عبارة تفتح لنا أبواب المستقبل وتضمن لنا النعيم المقيم دنيا وآخرة ، فبعد أن تمطع ولمع نظارته الطبية نظر إلى مصر من فوق ، فوق قوي قوي ، فوق الصحاري والسماء والبحر والكون والوجود وهتف هتافه الشهير :

"طز في مصر"

يقول المثل "المصري" الأصيل الجميل المُشْرَب بماء النيل والمخلوط بطمي الحكمة " لو طلع العيب من أهل العيب ما يبقاش عيب " ، لكن

المصيبــة أن الكثيرين قد أصبحــوا يدينون بهذه النظريــة الطزّية ، فأصبحوا يعمـلـون بها ليل نهار بوعي أو بدون وعي ، لا فرق فالهدف واحد والنتيجة واحدة ، تطوير وتنمية وتعميم النظرية الطزّية .

المصيبة الأكبر أن هذه النظرية قد زادت وطفحت حتى حاصرتنا في كل مكان ، في البيت في المكتب في الســيارة وحتى في التلفاز ووابور الجاز ، طفحت ووصلت للحلقوم فزكمت الأنوف وأعمت الأبصار ، ولو ســبناها تكبر وتولد سوف يعتنقها أطفالنا المصريون القطاقيط ، ويمكن بعد أربعين ســنة كده يقف ابنك وابني في مجلس الشــعب الموقر منعكشيــن شــعرهم وقالبين حواجبهم سبعة ومرددين مصر مين؟ مصر فين؟ مصر بكام؟ مصر ازاى؟ .... مصر ضااااع ..... هيييه .

هذا الكتاب عزيزي القارئ يتبنى نظرية حديثة ، عمرها ييجي كده عشرة آلاف عــام ، نظريــة ســرية يعرفهــا ويؤمن بها العالــم كله إلا إحنــا ، إيه بقى النظرية ، فتح عينيك ، طرطأ ودانك احضن حيطان البيوت وطمي الغيطان وقول معايا :

الأولة مصر
والتانية مصر
والتالتة مصر

الفصل الأول

بين الدين والحضارة

«أنصت إلى تفسير الحلم :

يجب أن تذهب إلى أهرامات مصر ،

التي لم أسمع أحدًا يحدثني عنها ،

و لكن إذا كان من أراك إياها في الحلم

طفلًا ، فإنها قائمة بالفعل ،

وهناك سوف تعثر

على الكنز الذي يجعلك ثريًّا»

باولو كويهلو

«الكيميائي»

دعوة للتناغم

بعدما تحط بنا الطائرة في بلاد الله ، وبعد نفض غبار السفر ودوشة شوارع القاهرة ، وصخب الجرائد المتزايد ، والانشغال بالماضي المشوش والمستقبل الملبد ، لا يملك المصري منا إلا أن يرى مصر بعيون أخرى وكأنه يراها لأول مرة .

عندما تصدمه المسلات الشامخة في باريس وواشنطن ، والأهرامات في اللوفر ولوس أنجلوس ، والجناح الفرعوني في هارودز في قلب لندن وأفيشات الأفلام التي تستلهم الحضارة والحكمة المصرية ، حتى صوت محمد سعد وهو يشدو في اللمبي تجده يحوطك وينزل فيك ضرب من نوعية ضرب الحبيب ، وأنت تمشي في أهم شوارع نيويورك بجوار ذلك الشاب الأسمر الذي يبادرك بأحلى "اتفضل يا باشا" سمعتها في حياتك .

يقول المضروبون بحب مصر : إن هذه هي مظاهر الحب الصافي ماركة القط يحب خناقه ، ويزداد لديهم الشوق والوله إذا ما قادتهم الخطى

لدخـول أي متحـف مـن المتاحـف الرئيسـية فـي أي مـن عواصـم العالـم المتحضر فيخرون صرعى ، فمصر موجودة في كل مكان ، حاضرة ومؤثرة وملهمة ، ويبدو أنه لا مفر منها إلا إليها .

لقـد حاولت جاهدًا فـي زيارتي الأخيرة لأمريـكا الهرب من الضجيج والطنيـن الـذي يلفنـا فـي مصر ، ولكـن انتهى بـي الحال مريـدًا من ضمن المريديـن وعاشـقًا من ضمـن ملايين العشـاق المفتونين بسـحر مصر في مشارق الأرض ومغاربها .

والبدايـة كانـت في متحـف المتروبوليتـان في نيويورك ، مـا إن دخلت مع أسـرتي الصغيـرة حتى وجدت على يميني "الجنـاح المصري" وأمامي الجنـاح الأمريكي ، وبرغم وصولنا من مصر فجـر اليوم فلقد قررنا جميعا الدخول في حضن مصر يلفنا شعور مهيب بالانتماء لهذه الحضارة ، وفخر شديد بأننا من أبنائها وألم عميق من حاضر الأحوال .

بعـد أن قضينـا معظـم الوقت فـي جناح مصـر ، يحاول أطفالـي قراءة المعلومـات المكتوبـة تحـت كل لوحـة أو تمثال يشـهد بالعظمـة والرفعة والجمـال ، وبعد محاولات البحث عمن يشـبهنا مـن الجدود العظام دلفنا إلى جناح الفن الأمريكي لنجد ... مصر !!! .

فـأول تمثال على اليمين ، حالما تدخل هـو تمثال كليوباترا وفي الجهة المقابلـة نحت بارز وكأنـه لوحة بارزة لملاك وهو يقبض على كتف نحات ينحـت وجهًـا فرعونيًـا بديعًـا ، ومكتوب تحـت التمثال أنـه يعبر عن حب المثَّـال لعمله واستغراقه في النحت حتى يأخذه مـلاك الموت ، ويبدو أن المثـال لـم يجـد رمزًا خالـدًا يعبر به عن فـن النحت أفضل من هـذا الوجه المصري الجميل .

هنا ومع هذا الامتزاج الحضاري الواضح بين الحضارة الأولى والأخيرة داخل المتحف ، بدأت الأسئلة تتداعى وتتراكم يومًا بعد يوم طوال الرحلة التي استمرت شهرا وكانت البداية مع السؤال الحاضر في معظم المقالات الأمريكية المتعلقة بـ (مصر) والمنطقة "لماذا يكرهوننا؟"، وهو السؤال الذي يطرح في واقع الأمر من الجانبين ؛ لذا فيجب تصحيح السؤال ليكون "لماذا يكره بعضنا بعضًا؟" ، مرورًا بأسئلة الهوية المشوشة في مصر وأمريكا ثم قضايا السلام و"أمن إسرائيل" الذي يعد خطًّا أحمر عند الساسة الأمريكيين ! .

ولكنني أفقت من دوامة الأسئلة تلك على ابنتي وهي تطرحني أرضا بهذا السؤال المقرر والمكرر علينا منذ وعينا على هذه الدنيا:

"بابا ، بابا"

" نعم يا فرفر"

" هيا التماثيل حرام؟؟"

نظرت إلى ابنتي الصغيرة ذات التسعة أعوام مذهولًا ؛ فها أنا في أحد أشهر متاحف العالم ، أحاول إطلاع عائلتي على لمحات من الحضارة الإنسانية ، ولكن ها هي ابنتي تأخذني إلى نقطة الصفر ، فإذا كانت التماثيل والصور حرامًا كما تسمع من هنا وهناك فإن المتاحف ، وهي التي تعرض للحضارة والفكر الإنساني في عصوره المختلفة ، هي بالتالي حرام وقد يحرم البعض زيارتها بل قد يدعون لتحطيم التماثيل الموجودة بها وحرق الصور! .

تداعى إلى ذهني فورًا النقاش الذي حدث بين ابني أدهم ومدرس الدين منذ عامين حيث أفتى المدرس بأن لعب الكرة حرام ؛ لأنه يلهي عن

ذكـر اللـه ، ولأن الصحابة لم يلعبوها ، ولأنها لعبـة اخترعها الغرب الكافر ولأن رُكَبَ اللاعبين عورة !!!

وإذا كنـا في مصر نغـرق في مثل هذه الأسـئلة والفتـاوى ونتندر أحيانا علـى سـطحيتها ونفرح كالأطفال عندما نجد فتوى "مسـتنيرة" تيسـر علينا دنيانـا ، فإن واقع الأمر يقول بأن السـؤال المهم والمبدئـي ، والذي أصبح يسيطر على معظم الكتابات والأفكار في عالم اليوم والذي تجده مطروحًا بشكل أو بآخر في وسائل الإعلام الأمريكية هو "هل الأديان ضد الحضارة الإنسـانية؟؟ وكيف يمكن المصالحة بينهم؟؟" طبعًا نحن هنا نتحدث عن الأديـان "الإبراهيميـة" وهو اللفـظ الآخذ في الانتشـار الآن للإشـارة إلى الأديان السماوية الثلاث ، إن هذا اللفظ يضع الأديان الثلاثة في سلة واحدة ويحـاول التعامل معهـا كوحدة ذات أفكار وتوجهـات متفقة في معظمها ، خاصة عند النظر إليها من منظور علمي عقلاني .

تجدر هنا الإشارة إلى أن الفكر السائد في العصور الوسطى في أوروبا كان يفصل بين الأديان الثلاث حيث كان العداء هو السمة بين المسيحيين وكل من اليهود والمسلمين ، ولم يجد يهود الأندلس بدًّا من الفرار من وجه المسيحية المنتصرة والعودة إلى الشرق مع المسلمين ويبدو أن الفكر قد تطور (نتيجة لأسـباب إنسـانية ونفعية ودينية) ليخـرج لنا العقيدة المتوافقـة والمتصالحة "اليهودية- المسيحية" والآن يبدو أن تطورًا فكريًّا جديدًا يأخذ في التبلور ؛ ليحاول وضع الأديان الثلاث في بوتقة واحدة متوافقة ومتصالحة (مرة أخرى لأسباب إنسانية ونفعية ودينية) والتعامل معها على هذا الأساس.

إذن نعود مرة أخرى إلى سؤال الأديان والحضارة(*) ، وهنا نجد اهتمامًا

(*) يمكن تعريف الحضارة على أنها الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي ومقدار التقدم العلمي الذي تمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ.

متزايدًا من المفكرين والمثقفين بطرح رؤية جديدة لفهم الأديان الإبراهيمية وتحديد الفروق بينها ، واهتمامًا أكبر بمحاولة العثور على أرضية مشتركة تجمع ما بين الأديان من ناحية والحضارة الإنسانية من ناحية أخرى ، خاصة بعد تحول العالم إلى قرية صغيرة تتعايش فيها مختلف الطوائف والملل والنحل والأفكار جنبا إلى جنب .

فلقد أصبح من الطبيعي أن تجد المسلم ، والمسيحي واليهودي والبوذي والسيخ يعملون في تجانس في شركة واحدة ، أو جيرانًا في منزل واحد في لندن أو دبي أو نيويورك أو الرياض ، والكل يعمل ويعيش في تناغم تحت القوانين نفسها ومتبعا النظم العلمية ذاتها في الإنتاج والتسويق والإدارة بلا حواجز ولا كراهية بسبب لون أو عرق أو دين ، الكل يسعى لحياة كريمة داخل مجتمعات منظمة ، فقط لا غير(*) .

إذا فالمسألة قد تخطت فكرة أن الإسلام عدو وتطورت لتصبح "كيف يمكن أن تتناغم الأديان الإبراهيمية مع بعضها البعض ومع الحضارة الإنسانية" .

يستند هذا الطرح على عدة نقاط مبدئية :

1 ـ الإيمان الصحيح بالله هو إيمان بالحق والعدل والخير والسلام لكل "خلق الله" :

وخلق الله هم مليارات البشر من جميع الملل والنحل ، وقد فسر الشيخ محمد الغزالي "رب العالمين" التي نقرأها في فاتحة الكتاب هكذا:

(*) تبنت الإسكندرية هذا النسق طويلا منذ نشأة مكتبتها العريقة وإلى وقت قريب كان يمكننا أن نجد المصري واليوناني والإيطالي ، المسلم والمسيحي واليهودي ، كل يعمل ويعيش ويتفاعل جنبا إلى جنب.

"سيد العوالم كلها من العرش إلى الفرش ، من السماء إلى الأرض ، من الحيوان إلى النبات ، من الملائكة إلى البشر" كل البشر ، وبالتالي فادعاء تفضيل الله لشعب عن آخر ، أو عقيدة عن أخرى لهو ادعاء عنصريٌّ ويعد استمرارًا لفكرة "شعب الله المختار" ، والتي تطورت لتأخذ الشكل الصهيوني العنصري ، أو لفكرة سمو ونقاء الجنس الآري ، التي تحولت إلى النازية العنصرية .

2 ـ الأوامر الإلهية في التفكر والتدبر والسعي هي في ذاتها الدافع الأساسي لتحقيق حضارة إنسانية متطورة ومستمرة :

والقرآن الكريم مرجع أساسي في هذه النقطة ، حيث كانت الآيات الأولى التي نزلت على سيدنا محمد من سورة العلق :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق : من 1 – 5)

وقد علق شيخنا الإمام محمد عبده ، في معرض تفسيره لهذه الآيات، فقال :

" ثم إنه لا يوجد بيان أبرع ، ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم يُنَبِّهُهم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم، وكسر تلك الأبواب التي أغلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها في

ظلمـات من الجهل ، وإن لـم يسترشـدوا بفاتحة هذا الكتـاب المبين ، ولـم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع .. فلا أرشدهم الله أبدًا !!!! " .

وأذكر هنا مقالًا للأستاذ رجاء النقاش نقل فيه عن مقال قديم وجده في إحدى المجلات (أعتقد أنها مجلة الرسـالة) الصادرة عام 1930، صاحب المقـال الأصلـي عـدَّدَ الأوامـر الإلهية التـي تحض علـى النظـر ، والتدبر والتفكـر في القـرآن الكريم فوجدها تفوق كثيرًا عـدد الآيات التي تتحدث عن العبادات والشـرائع ، وخلص من هذا إلى أن العلوم الدينية الأساسـية يجب أن تكون الفيزياء والكيمياء والرياضيات وما شـابه وليس علوم الفقه والـكلام ، ومن عجب أنني عندما نقلت هذه الفكرة إلى الشـيخ "سـلمان" وأصدقائـي في جلسـة تجويد القـرآن ارتفعـت الأصوات غاضبـة ولاعنة ورافضة وللأسـف مكفـرة!! ويبدو أن عجلة التنوير فـي مصرنا العزيزة قد دارت للخلف دورات ودورات!! .

و يبـدو أن شـيخنا الإمام كان يستشـف المسـتقبل ويرى بعيـن البصيرة "الأبواب التي أغلقت علينا وتركتنا في ظلمات الجهل" .

3ـ الحرية هي فكرة أساسية سعت إليها كل الأديان:

الفكر الحر المخير هو أسـاس الوصول لله ولحقائق الكون والعلم في آن واحـد ، وكمـا تقول أمثالنـا المصرية الجميلة التي تدعونـا للتعقل "ربنا عرفوه بالعقل" .

ولنقـرأ معًـا ما كتبه د . محمد عمارة في كتاب تيارات الفكر الإسـلامي في عرضه لفكرٍ واحدةٍ من أهم الفرق الإسـلامية المؤثرة ، فيقول عن فكر المعتزلة :

"وفـي الحق فإن مقام العقـل عند المعتزلة هو صفحة من الصفحات المشـرقة فـي حضـارة العـرب والمسـلمين .. فالعقـل عندهم هـو "وكيل اللـه" عند الإنسـان جعل إليـه أزمة أموره ، وقيادة نشـاطاته .. وهم يطلبون أن يدعم الإنسـان عقله الغريزي بعقله المكتسـب ، فذلك هو السبيل لبلوغ غاية الكمال كما يقول الجاحظ" .

"والمعتزلة عندما يعرضون للأدلة وترتيبها يختلفون اختلافًا أصيلًا عن أصحـاب الحديـث وعامة أهل السـنة في تعداد هذه الأدلـة وترتيبها ، فهي عند أهل السنة ثلاث : الكتاب والسنة والإجماع ، على هذا الترتيب.. بينما هـي أربع عند المعتزلة ، يضيفون العقل إلى هـذه الأدلة الثلاثة ، ويقدمونه عليهـا جميعا ! بـل ويرون أنه الأصل فيها جميعـا !! فالعقل هو أول الأدلة وليس ذلك فقط ، بل هو أصلها الذي به يعرف صدقها ".

فـ "الله – تعالى – لم يخاطب إلا أهل العقل" "ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له" .

وقد فسـر الشـيخ محمد عبـده "الفرقان" في سـورة الأعـراف على أنه "العقل الذي يمكن به الفصل بين الحق والباطل" .

إن التعامل مع البشر على أنهم قُصَّر وميالون للشر والانحلال بالفطرة ، وبالتالي وضع قوانين متزمتة ومقدسة ، تفرض عليهم نوع المأكل والملبس والمشرب، وحدود التفكير، لهو أسلوب انتهى من عالم اليوم وثبت فشله بل ونتيجته العكسـية على سلوك البشر ، والمجتمعات ، وطبعًا نموذج أوروبا في العصور الوسـطى حيث الكنيسـة ظـل الله علـى الأرض تمنح الرحمة وصكـوك الغفران ، وتقيم في الوقت ذاته محاكـم التفتيش ، لهو أكبر دليل على فشل مثل هذا النوع من الوصاية المقدسة على البشر .

إن المجتمعات التي تتمتع بقدر أكبر من الحرية هي المجتمعات التي استطاعت التقدم وصناعة الحضارة، وهي أيضا التي استطاعت تصحيح الشطط الاجتماعي الذي قد ينتج من التحرر المنفلت وغير المسئول في إطار من العدالة والقيم الإنسانية، على الطرف الآخر يمكننا بكل وضوح أن نرى أن المجتمعات الضعيفة والمتخلفة هي التي تلجأ إلى القمع وكبت الحرية الفكرية وفرض أفكار التدين الشكلي على أفرادها .

4 ـ العلوم والفنون والآداب هي في حد ذاتها وسائل إنسانية للوصول إلى الحق والخير والجمال:

محاولات تقييد وتحريم الفنون والآداب، بدعوى العفة والحفاظ على النهج الديني، أدت في واقع الأمر وعلى مر التاريخ، إلى نتائج عكسية وضعت الدين في مجابهة الثقافة والحضارة الإنسانية وكأنهما ضدان، مع أن الأديان جزء مهم من المكون الثقافي للبشر وبالتالي للحضارة .

فليس من المعقول أن يستمر الفكر الديني في تحريم وتجريم الفنون وتقييد حرية الفكر، بينما يقوم في الوقت نفسه بتكريم وتشجيع بناء القوة العسكرية المدمرة بدعوى نشر الدين تارة أو الدفاع عنه تارة أخرى، فتصبح صناعة السينما (مثلا) أو فن النحت مَسًّا من عمل الشيطان بينما صناعة السلاح أو حيازة أكبر قدر مدمر منه فاتحة لدخول الجنة!! حتى بتنا نرى الصليب على الصواريخ الأمريكية الموجهة للعراق، ونسمع عن جماعات "إسلامية" صومالية تمنح الأطفال قنابل ومدافع رشاشة كجائزة في مسابقات حفظ القرآن !!

العجيب والمذهل أن هذا التصرف هو على النقيض تماما مما قام به رسول الإسلام حين أطلق سراح الأسرى من المشركين المحاربين الذين

علمـوا أبناء المسـلمين القراءة والكتابة !!! وبالقطع هـو أبعد ما يكون عن تعاليم السيد المسيح .

ونرجع هنا إلى سـؤال "فرفر" عن تحريـم النحت والتماثيل ، ولنلتمس من شيخنا الإمام محمد عبده الإجابة حيث يقول :

" .. أما إذا نظرت إلى الرسم ، وهو ذلك الشعر الساكت ، فإنك تجد الحقيقـة بـارزة لـك ، تتمتع بها نفسـك ، كما يتلـذذ بالنظر فيها حسـك... فانظـر إلـى صـورة أبي الهـول بجانب الهـرم الكبيـر تجد الأسـد رجلًا أو الرجل أسـدًا ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعـة على الإبداع فيها ... إن الراسـم قد رسـم والفائـدة محققة لا نزاع فيهـا ، ومعنى العبـادة وتعظيم التمثال أو الصورة قـد مُحي من الأذهان ... وبالجملـة ، إنه يغلب على ظني أن الشـريعة الإسـلامية أبعـد من أن تحرم وسـيلة من أفضل وسـائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطـر فيها على الدين ، لامن وجهة العقيدة ولا من وجهة العمل " .

ثم يستطرد شيخنا الإمام فيقول : " على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ... نحن لا نُعنَى بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا .. فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا ، وإنما الذي يتوارث هو ملكوت الضغائن والأحقاد تنتقل من الآباء إلى الأولاد حتى تفسد العباد، وتخرب البلاد ، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد" .

5 ـ يجب أن تتوقف فكرة القتل باسم الإله :

لقد تم قتل ملايين البشـر تحت الرايات المقدسـة ؛ حيث النصر يقاس بعدد القتلى وبعدد الأمتار المكتسبة من الأرض ، وتم تسييس الأديان لتوفير

غطاء فكري يدفع المتدينين إلى ساحات القتال ؛ كل يحاول نيل الشهادة والفوز بالجنة ، ولم يتوقف تسييس الدين لقتل المخالفين في العقيدة فقط بل امتد لمحاربة المختلفين في المذهب !! الكاثوليك ضد البروتستانت والشيعة ضد السنة، وهكذا بدون أي تعقل أو منطق .. وإذا تكلمت يكون الرد "لا تجادل ، فمن تمنطق تزندق"!!!!

إن استمرار تفكيرنا وتعاملنا بمنطق "عسكر وحرامية" حيث لا نستطيع ممارسة لعبة الحياة بدون عدو ولا نستطيع أن نصبح أخيارًا إلا في وجود أشرار لهو شيء غريب وطفولي ومدمر .

يجب أن نتوقف عن الدوران في تلك الدائرة المفرغة حيث "الأخيار" يجب عليهم اختيار "شرير" مناسب ومتوافق مع روح العصر ، فتارة تتعالى صيحات "الأخيار" لقتل الوثنيين !! ثم المخالفين في الدين !! ثم المخالفين في المذهب !! ثم الساحرات الملاعين !! ثم الشيوعيين !! ثم اللادينيين" !! وهكذا لن يصبح الأخيار أخيارًا حتى يقتلوا الإنسانية كلها باسم الإله الرحمن الرحيم .

وإذا كان فلاسفة عصر النهضة في أوروبا قد وجدوا الحل في وضع الدين جانبًا مادامت الكنيسة تصر على تحجيم حرية الفكر والعلم وقمع النساء ، فإن الطرح الآن يحاول التوفيق بين الطرفين بعدما ثبت صعوبة الفصل بين الجانب الروحي والجانب العقلي للإنسان ، وأعتقد أننا في هذا الصدد سوف نرى أفكارا كثيرة تدعو لتطور الفكر الديني مع تهذيب الفكر الإنساني العقلاني حتى نصل لتوافق يدفع بالحضارة الإنسانية العقلية والروحية إلى الأمام في تناغم وسلام .

إذًا ، وحتى نستطيع التخلص من تلك الدائرة الجهنمية ، فإنه قد يجب علينا أن نضع قواعد جديدة للعبة ثم نلعب من أول وجديد ، ويبدو أن القواعد الجديدة ترتكز على ما يلي :

- لا يمكن الاستمرار في لعبة صراع لن يفوز فيها أحد ؛ فالجميع سيخسر بشكل أو بآخر .

- الأوضاع الاقتصادية الحالية منهارة ، والهيكل الاقتصادي العالمي أصبح متشابكًا لدرجة أن تداعي إحدى الدول ، أو اندلاع حروب طويلة الأمد ، ستمتد آثارها السلبية إلى دول أخرى حتى المنتصرة منها .

- احتلال الأرض أصبح عبئًا مهولًا على المحتل مهما كانت قوته ودمويته.

- مهما حسنت النوايا فالشعوب لن تتقبل التغيير من الخارج ، مرة أخرى الاحتلال لن يفيد أحدًا .

- من الممكن أن نكسب جميعًا إذا لعبنا معًا ضد المشكلات المتفاقمة من فقر وجهل ومرض وتعصب وتصحر ونقص في الطاقة والمياه ، وهي قائمة مشكلات طويلة عريضة ، من الغباء تَرْكُها لتتفاقم وتتراكم .

- التطرف الأصولي لا دين له : لقد أصبح واضحًا بما لا يدع مجالًا للشك أن المشكلة الأساسية لا تكمن في الأديان بحد ذاتها ، ولكنها تكمن في موجات التفاسير الأصولية التي اجتاحت العالم والتي تدثرت بعباءة الدين ، واستندت عليه لتنفيذ مشروعات سياسية من أول إنشاء إسرائيل في فلسطين ، وحتى محاربة الشيوعية في أفغانستان ، فالكل يحارب ويقتل ويدمر باسم الإله ويجرجر في طريقه ملايين " المؤمنين" وقودًا للحرب وقواعد للتعصب والكره .

ولقد أصبحت التبريرات التوراتية التي ساقها جورج دبليو بوش نموذجًا مثاليًّا لهذا التطرف الأصولي القاتل والمدمر ، وقد نقلت جريدة الشروق عن الكاتب كلايف أندرسون ما نصه :

"في عام 2003 بينما كان يحشد القادة لتشكيل التحالف الذي سيقود الحرب ، أعرب بوش عن يقينه بأن قوم يأجوج ومأجوج المذكورين في الكتاب المقدس يمارسون عملهم في الشرق الأوسط وإن من الضروري هزيمتهم" !!

" وأشار كلايف إلى ما ورد في سفري التكوين وحزقيال ، وهو أن قوم يأجوج ومأجوج هم القوات التي تنبأت الرؤية التوراتية أنها ستأتي من الشمال وتدمر إسرائيل إلا إذا أمكن وقفهم" .

" وقال كلايف إن بوش كان يعتقد أن الوقت قد حان لخوض هذه المعركة" .

" وقد قال بوش للرئيس الفرنسي شيراك : إنها مشيئة الله الذي يريد لهذا الصراع أن يمحو أعداء شعبه قبل أن يبدأ عصرًا جديدًا" !! ولقد فوجئ شيراك "و تعجب كيف يمكن أن يكون هناك شخص على هذا القدر من السطحية والتعصب في معتقداته" .

"في العام نفسه قال بوش لوزير الخارجية الفلسطيني إنه قام بغزو العراق وأفغانستان "بتكليف من الله" وإنه كان يتلقي الأوامر من الرب!!!" .

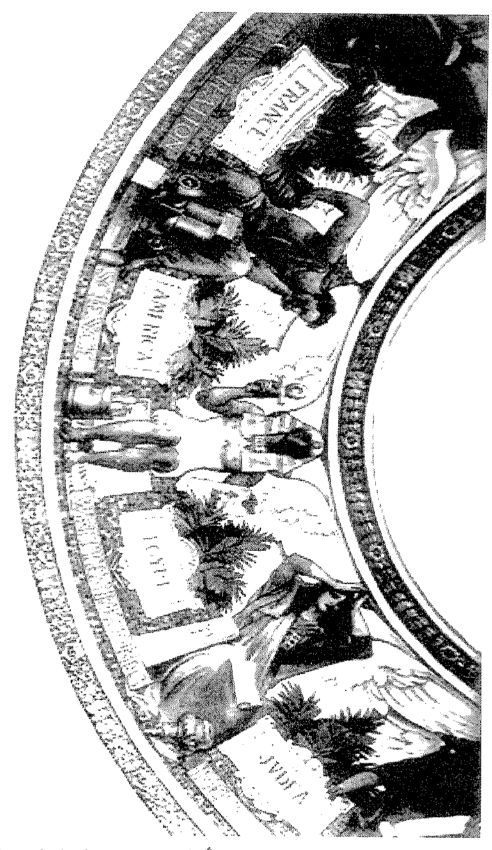
ذكرني هذا بابني أدهم وهو يسألني فزعًا عن يأجوج ومأجوج !! فلقد أكد لهم مدرب كرة القدم في أحد المعسكرات أن يأجوج ومأجوج

سيحضرون ليأكلوا الأولاد الوحشين اللي ما بيسمعوش كلامه وينامو بدري !!!

وهكذا تم إثبات كروية الأرض ومدي التوافق في استخدام القصص الديني لترويع البشر في جميع أنحاء المعمورة ، فمدرب الكرة المصري ورئيس أكبر دولة في العالم يقومان باستخدام نفس القصة ، وكل لأهدافه!!!

وكم من القتل والتدمير والتعصب والعنصرية يحدث باسم الله مع أن الله محبة ، رحمن ورحيم!!!

وقد يكون من المناسب أن نسلط المزيد من الضوء على الأصولية الدينية في الصفحات التالية .



جدارية في مكتبة الكونجرس ، غرفة القراءة الرئيسية - تمثل الدول التي ساهمت في تطور الحضارة الإنسانية ، والبداية دائماً مصر . (أودي بلاستنليد 1895)

ومن الأصولية ما قتل

ترى هل هناك فرق بين الأصولي اليهودي ، والأصولي المسيحي، والأصولي المسلم ؟ أم أن الأصولية هي طريقة في التفكير والتكفير يتبعها مجموعات من الأدعياء من كل الملل والنحل؟

دعنا نعرض هنا لبعض أفكار اليمين الأصولي الأمريكي كما وردت في كتاب " أصول التطرف" لـ كيمبرلي بلاكر علنا نجد الإجابة (مع ملاحظة أن الأقواس تحمل تعليق الكاتب):

1 ـ من هم الأصوليون :

- متزمتون ومقتنعون تمامًا بأنهم على حق . (والآخرون على باطل) .

- موقنون أن هناك ربًّا قادرًا يحيط بكل شيء علما ، يرعاهم ويوجههم . (هم وجماعتهم فقط ، أما بقية خلق الله من مليارات البشر المختلفين معهم في العقيدة والأفكار ، فهم إما كفرة أو مشركون ، وبالتالي فإنهم يقعون خارج الرعاية والتوجيه الإلهي) .

- إنهم جزء من الكنائس التي تطلب الالتزام التام بالمذهب الديني ، والتي تتوقع طاعة عمياء . (طبعًا يمكنك استبدال الكنائس بالجوامع أو المعابد) .

- تحركهم العاطفة أكثر مما يحركهم العقل في الحفاظ على عقائدهم ، أكثر من الآخرين . (وعلى غير استعداد لسماع وجهة نظر الآخرين) .

- هجوميون ، قتاليون ، مقاتلون في مداخلاتهم ، وباختصار مرحبون بالعنف في سبيل "المعركة الملكية" . (أو نشر الدعوة)

- يكفرون العقلانية والعلمانية والنزعات الإنسانية . (مع استمتاعهم واستخدامهم لكل إنجازات العقل ، والعلم ومع شكاواهم الدائمة بعدم تطبيق قوانين حقوق الإنسان عليهم).

2 ـ كراهية الآخر ورفضه :

" أريدكم فقط أن تدعو موجة اللاتسامح لتغمركم ، أريدكم أن تسلموا أنفسكم لموجة من الكراهية . نعم أريد منكم ذلك ؛ فالكراهية شيء طيب وهدفنا هو إقامة أمة مسيحية . إن الكتاب المقدس يحملنا المسئولية، فالرب قد اختارنا كي نفتح هذا البلد . لا نبغي مساواة . ولا نريد تعددية" .

"تصر جماعات اليمين المسيحيين على أن تصورها للحقيقة وحده هو الصواب وبالتالي يصير من السهل إخراج المسيحيين الذين لا يتفقون معهم من الدين باعتبارهم ليسوا مسيحيين "حقيقيين" !! أكثر من ذلك ، فإن أي نقد للأهداف السياسية للتطرف الأصولي يتم تصويره على أنه إهانة للدين" .

"كل الأصوليين سواء ، مهما اختلفت مسمياتهم ، ربما لا يكونون سواء من حيث المناهج والأهداف ، وقد تختلف كلمات بعضهم عن بعض ، لكن جميعهم لا يجيدون إلا نغمة واحدة ، ألا وهي أن الرب يقف إلى جانبهم ، وبالتالي فإن عقائدهم صحيحة ويجب أن تفرض بالإكراه على أفراد المجتمع كافة" .

3 ـ استخدام التليفزيون في الدعوة والترغيب والترهيب :

"ومن المفارقات الطريفة ، أن الأصوليين وظفوا الاختراع الحديث للتليفزيون (البدعة والضلالة) على مدار العقود القليلة الماضية ؛ حيث استعملوه في نشر رؤاهم حول شرور الحداثة وخطأ المنهج العلمي (الذي اخترع التليفزيون والميكروفون والقمر الصناعي الذي يتحدثون من خلاله أساسًا!) ففي عقد الستينيات ، ظهرت موجة من الإيفانجليكية التليفزيونية" . (ألا يذكرك هذا بالقنوات الفضائية الإسلامية) .

"وربما يكون بيلي جراهام أكثر نماذج التبشير في العصر الحديث شهرة ونجاحًا ؛ فقد كان مستشارًا لعديد من رؤساء الولايات المتحدة . ومن خبرتي الطويلة به ، أستطيع القول بأنه خطيب مفوه من الدرجة الأولى؛ فحديثه فيه من القوة ما يحدث أثرًا كهربائيًا ومغناطيسيًا في الحضور . فهو يرسم صورة لمباهج الجنة في انتظار أولئك الذين حازوا خلاصهم ، أما الذين يرفضون هبة الخلاص المجانية فإنهم يكادون يلمحون من خلال خطبه مشهدًا بالألوان لأهوال النار" .

(طبعا كتب وشرائط "أهوال القيامة" وصور العذاب لا تعد ولا تحصى).

(العجيب هنا أن الدعاة الأصوليين يستعملون كل منتجات العلم الحديث ، ولكنهم يكفرون العلمانية ولا يجدون أي تناقض في استعمال منتجات أصحاب الديانات الأخرى ، من أول الصابون إلى الغذاء والأدوية والملابس والمكيفات والسيارات والأسلحة ، ولكنهم يكفرونهم !! ويدعون عليهم في كل صلاة ! ولا يشعرون بأي تناقض!!) .

4 ـ التبشير باقتراب يوم القيامة وعلامات الساعة :

"لقد أصبحت الغلبة لجماعات "ما - قبل الألفية" في كثير من الكنائس الخمسينية والأصولية فيما يخص عقائد نهاية الزمان ، ويلاحظ مارتن أن تلك الجماعات تعتقد أن الأخبار السيئة مثل الفوضى السياسية، الارتداد الديني ، تزايد الأذى بشكل غير مسبق ، وقوع الزلازل ، وانتشار الأوبئة ، وما إلى ذلك هي علامة اقتراب المجيء الثاني للمسيح (القيامة ، يوم القيامة) . ربما لهذا السبب زعم جيمس وات ، وزير الداخلية في إدارة ريجان ، أننا " لسنا مضطرين لحماية البيئة ، حيث إن المجيء الثاني على وشك الحدوث" .

(صورة طبق الأصل)

5 ـ تغيير مفهوم التعليم وإنشاء الدولة الدينية :

"لسنا نهدف إلى تطوير المدارس إلى الأفضل ... بل نهدف إلى تعطيلها بحيث لا تزيد أعدادها ... هدفنا بوصفنا مسيحيين نتقي الرب ولا نساوم في إيماننا ... هو أن نغلق المدارس العامة ... خطوة خطوة ، ومدرسة تلو مدرسة ، في حي تلو الآخر" .

"لا يمكن السكوت على وجود المدارس العلمانية؛ حيث إن هذه المدارس ليس لديها تعاليم دينية ، والتعاليم الأخلاقية العامة بدون أسس دينية هي بمثابة البناء في الهواء ، وبالتالي لابد من أن تستقي كل تدريبات بناء الشخصية من الدين ... نريد أناسا مؤمنين" .

"لن يكون ثمة احتمال لتأسيس جمهورية دينية ما لم يسحب الغالبية العظمى من المسيحيين أولادهم من المدارس العامة" .

(ذكر خالد رمضان في جريدة اليوم السابع أن (طالبان) فرع باكستان ، قد قامت خلال الستة أشهر الأخيرة من عام 2009 ، بنسف وتفجير 189 مدرسة معظمها مدارس بنات !!) .

6 ـ التفسير الديني للعلم :

"فمنذ 500 عام وجد الأصوليون تفسيرا من الكتاب المقدس لتوكيد أن الأرض مسطحة ، وقبل 400 عام تمسكوا بأن الأرض هي مركز الكون ولا تتحرك ، وقبل قرن من الزمان حاولوا استبدال معامل باي (الذي يمثل النسبة بين طول محيط الدائرة وقطرها) برقم 3 الذي يجدون له تفسيرا في الكتاب المقدس" .

(و لا تزال فتاوى الأرض المسطحة موجودة حتى الآن) .

7 ـ طرح مفهوم أصولي للثقافة والإعلام :

"في مؤتمر الحزب الجمهوري عام 1992 تحدث مرشح الرئاسة المحافظات بوكانان أيضا في الموضوع نفسه قائلًا: إن ثمة حربًا دينية دائرة في هذا البلد . إنها حرب ثقافية ستحدد نوع الأمة التي نريد أن

نكونها، وتضارع في أهميتها أهمية الحرب الباردة . إنها حرب من أجل روح أمريكا ."

(ويبدو أنهم يدفعوننا لنخوض معركة من أجل روح مصر أيضا!!!!).

8 ـ تدني مكانة المرأة :

"خضوع المرأة لزوجها يحررها من كثرة المشكلات والإحباط ، وخضوعها لأوامر الرب يحررها من الإحساس بالذنب ، فالخضوع يعد نعمة وليس نقمة" .

"على المرأة أن تتلقى التعاليم بسكوت وبكل خضوع ، ولست أسمح للمرأة أن تتعلم ولا أن تتسلط على الرجل ، بل عليها أن تلتزم السكوت. ذلك لأن آدم كُوِّنَ أولًا ثم حواء ، ولم يكن آدم هو الذي انخدع (بمكر الشيطان) بل المرأة انخدعت فوقعت في المعصية . الا أنها ستحفظ سالمة في ولادة الأولاد" .

(وينوء التراث المسيحي الأوروبي بقصص حرق السيدات "الساحرات" وبوجوب ارتداء المرأة لحزام العفة الحديدي لزوم الحفاظ على الشرف!!).

9 ـ شرعية تعذيب وقتل غير الأصوليين (غير المؤمنين) :

"الخطيئة عاقبتها الموت ، ومن حق الأطفال أن يعوا تلك الحقيقة".

"والإعدام بالرجم هو العقوبة المفضلة لدى " معيدو البناء " من المسيحيين الأصوليين" .

(صورة طبق الأصل) .

10 ـ الهدف النهائي :

"تنصير أمريكا ، وشغل جميع المناصب الحكومية بمسيحيين مؤمنين بالكتاب المقدس ، والسيطرة على الإعلام الوطني ، وتدريس المعتقدات الأصولية كعلم في المدارس العامة ، وإملاء المعنى الحقيقي للحياة الإنسانية ، وتنصير كل إنسان على وجه الأرض في النهاية" .

* * *

ينتهي هنا عرض الأفكار الأصولية المسيحية الأمريكية ، وتبدأ الأسئلة:

- هل تبنَّى الأصوليون في كل الأديان الأفكار السابقة نفسها ؟
- وهل استطاعوا اختطاف الأديان وإقناع المؤمنين والمريدين بهذه الأفكار؟
- وهل أصبحت كراهية الآخر ، المخالف في العقيدة أو المذهب ، من صميم الاعتقاد الديني؟
- وهل تمكنوا من إرهاب وتصفية المعارضين حتى لم نعد نسمع لهم صوتًا أو تأثيرًا ؟
- وهل تمكنوا من الوصول للحكم في بعض الدول المؤثرة والحاكمة في عالم اليوم ؟
- وهل تم استخدام الأديان استخدامًا سياسيًّا ليصبح المؤمنون وقودًا للحروب ؟

- وهل تم استخدام الدين من قِبَلِ أمريكا وشركائها لتكوين مجموعات إسلامية مسلحة لمجابهة الشيوعية ؟

- وهل انقلبت تلك المجموعات ، بما ملكته من سلاح وتدريب أمريكي، وروعت الدول الراعية لها بما فيها أمريكا؟

- وهل تم استخدام الأديان لخلق فتنة طائفية داخل دول بعينها لتفتيت تلك الدول من الداخل ؟

- وهل استلزم كل ما سبق الترويج لفهم ديني متطرف وعنيف ومنغلق مقاتل ؟

إذا كانت الإجابة (نعم) عن كل ما سبق من أسئلة ، إذًا تصبح الإجابة عن سؤال "لماذا نكره بعضنا بعضًا؟" أكثر وضوحًا والعمل على وقف هذه الأفكار أكثر إلحاحًا .

إن سيطرة أصحاب مثل هذا الفكر على الديانات المختلفة قد ترك لنا تاريخًا داميًا ما زلنا نكتب صفحاته حتى اليوم . لقد تحولت فكرة الشهادة وإعلاء كلمة الله ، كفاتحة لدخول الجنة ، إلى محرقة يموت فيها شباب في عمر الزهور ويحترق بنارها أطفال يولدون في جحيم الحروب التي تشن دفاعًا أو هجومًا باسم الله أو يهوه أو ديو أو جاد أو أيًّا كان الاسم .

وتحولت أفكار الحرية والإنسانية والعقلانية إلى رجس من عمل الشيطان ، يجب على المؤمنين الصالحين وأدها ولعن أصحابها دنيا وآخرة.

و أصبح العلم النافع هو ما ينتفع به في القتل و التدمير و الكبت و الإرهاب وما عدا ذلك فهو من البدع و الضلالات .

وإذا كان باراك أوباما مخلصا في دعوته التي أطلقها من جامعة القاهرة، وإذا كان صدقًا وفعلًا يسعى لإحلال العدل و السلام والديمقراطية في هذا العالـم ، فيجب عليه أولا الاعتراف علنًـا وذكر تفاصيل الدعم الذي قدمته الولايـات المتحـدة للجماعات الأصولية الإسـلامية خـلال حقبة الحرب الباردة وحتى 11 سبتمبر ويجب عليه أيضا التعهد بالتوقف عن مساندة تلك الجماعات و التوقف عن استخدام الأديان لتفتيت الدول من الداخل.

(مرفق رقم 1) .

وعلى هذا فقد يمكننا أن نعدل العنوان الذي صدمنا به صمويل هنتنجتون من "صــدام الحضـارات" ليصبح "الاختطـاف الأصولي للأديـان و صدام الحضـارات " ، وأعتقد أنـه يجب علينا أيضا طرح عنـوان آخر لنضع تحته مستقبلًا أفضل للبشر وليكن "الله رب العالمين محبة ورحمن رحيم" .

موكوس على موكوس

عاركة نصبها تيوس

وندروا العقيقة

دم الشقيقة

الدين لنا والوطن إن أمكن

عندما خرجنا من التايم سكوير وسرنا في الشارع الخامس متجهين ناحية متحف المتروبوليتان وجدنا الشارع مغلقا بحواجز حديدية والعشرات من قوات بوليس نيويورك منتشرة في الشارع بينما الأرصفة مليئة بالبشر يحملون أعلام بورتوريكو ويتحدثون الإسبانية !!

ما هذا ؟ إنه احتلال كامل من الإخوة البورتوريكانز لأهم شوارع نيويورك ، مما جعلنا نتساءل (مع محمد سعد برضه) الأمريكان راحوا فين؟؟؟ فين الشعر الأصفر والعيون الزرق ؟؟ فين اللهجة الأمريكاني المتعالية المتفشخرة بتاعة الواد الكاوبوي المخلص ؟؟ ويجيئك الرد ببساطة أنه احتفال للإخوة من بورتوريكو وقد نظموا مسيرات غنائية راقصة لتمر في وسط نيويورك وها هو البوليس يغلق لهم الشوارع وينظم السير ويغير مسارات العربات علشان عيون الإخوة البورتوريكانز !!

كيف يقبل الإخوة الأمريكان الأصلي إنهم يسيبو العيال بتوع بورتوريكو طايحين كده في الشوارع من غير لا إحم ولا دستور ؟ يظهر إن الأمريكان الأصلي دول طلعوا خيخة زي أبو لمعة الأصلي كده .

هنا قفزت في ذهني على الفور مئات المقالات والأحاديث والآراء والأحداث المؤسفة التي تتناول "الآخر" في مصر ، ترى ماذا حدث للمصريين ؟ فحتى الخمسينيات كانت مصر دولة كوزموبوليتانية بجدارة، يختلط فيها المصريون بالأرمن بالطليان باليونانيين بالشوام ، المسلمون بالأقباط باليهود بالبهائيين دونما تكفير وتخوين ، وكانت الإذاعة المصرية تذيع احتفال البهائيين بعيد النيروز وينشر هذا في الجرائد دونما حساسية، أما الآن وبرغم اختفاء معظم الأعراق الأخرى وتواجد المصريين فقط على أرض الكنانة ، بقينا "مش طايقين دبان وشنا" بل " مش طايقين روحنا" بل يبدو لي أحيانا أننا لم نعد نعرف "روحنا" .

يوماتي على الله أحداث تقع من هنا وهناك نتيجة لعب أطفال أو حب الشباب ، أو خناقة على زجاجة مياه غازية بين أي اتنين من المصريين يقوم كل واحد يجري على القبيلة بتاعته وهو يتباكى ، وتحصل عركة عظيمة نسميها فتنة طائفية ، بينما إذا وقعت المشكلة نفسها بين اثنين من الديانة نفسها توصف على أنها "جريمة" وتتم معاقبتها قانونيا بينما الفتنة الطائفية يتم حلها عرفيًّا بالبوس والأحضان مما يضرب قوانين الدولة واستقرارها في الصميم .

وطبعا بعد زلزال العركة تيجي التوابع وتسمع كلام من عينة :

"مصر بتاعتي" يقوم يجيلك الرد :

"يا سم ، لا مصر دي بتاعتي أنا وح اخدها غصبن عنك"

"كبة تشيلك انت وهوه مصر بتاعتنا كلنا"

وهكذا يستمر حوار طفولي ساذج ومتخلف يتكرر كل يوم حتى أصبح سمجا وممجوجا ، حوار لا يعرف أصحابه قدر مصر ومكانتها ، حوار لا طائل منه إلا ضياع الوقت والجهد في الفاضي .

يقفز هنا مشهد من الماضي القريب ونحن صغار نشاهد في فرح وذهول فيلم الناصر صلاح الدين في التليفزيون الأبيض وأسود ، كنا نتوقف عند عبارة قرأناها في كتب المدرسة منسوبة لهذا البطل الخارق (كما تصوره طفولتنا البريئة) . وبرغم أن بطلنا كان يقولها بكل ثقة وهدوء فقد وضعها المخرج في إطار مهيب ، يبدأ بصراخ أم ثكلى على وليدها الذي اختطفه جنود "كمشتكين" وينتهي بأجراس الكنائس تعلن الفرح والبهجة وهي تعانق صوت الأذان مع دخول الناصر صلاح الدين للمدينة المقدسة .

وقد كانت هذه الجملة على رغم بساطتها الظاهرة عميقة الأبعاد تدعو بالخير والسعادة والمستقبل المفتوح أمام الوطن العزيز مصر بكل أبنائه، فبعد أن أكد الناصر أن "جنود كمشتكين ليسوا جنودي" وبعد أن أمر باستعادة الطفل من أمواله الخاصة ، ألقى بهذه الجملة البسيطة الرائعة "شعارنا الدين لله والوطن للجميع" .

يا الله ، ما أحلى تلك الأيام ، اللمة في حضن الوطن ، منتصرًا كان أم منكسرا ، اللمة في نشوة صوت أم كلثوم والسماء الزرقاء بين يدي عبد الحليم والضحكة اللي من القلب مع صلاح جاهين ، اللمة حول مائدة الإفطار والجارة العزيزة إلين تدخل بطبق العاشورة الشهير ، وصوت

الشيخ مصطفي إسماعيل يرتل بروح مصر الجميلة ، كانت مصر لنا جميعا وكنا جميعًا لها .

ولكن للأسف الشديد دارت الأيام دورتها بالعكس ودخل المصريون جحور القبلية والعرقية والطائفية البغيضة ، وبدأت تظهر تفسيرات طائفية مقدسة تدَّعي أن مصر ملك لها وحدها ، فخرج من يدَّعي أنه الأصل وأنه سبق الآخرين في الوصول لقلب مصر وطبعا كما نعلم جميعا "اللي سبق أكل النبق" ، وخرج من يدَّعي أنه الأحق بما أنه الوحيد اللي على حق وطبعا "الحق أحق أن يتبع" .

و تخرج علينا الآن طائفة جديدة تتبختر بكل عزم وقوة وهي ترتدي اسود ف اسود ، تتمطع وهي تظهر العضلات والمجانص مبشرة إيانا بالنصر العظيم إذا انضممنا للحزب الكريم .

آسف صلاح الدين فشعارك لم يعد مقبولا لدينا ، مصر الآن تتنازعها الأعراق والقبائل والطوائف ، ولقد استبدلوا شعارك بشعار أجدى وأنفع وأروع وأمتع ، فشعار مصر القبلية الطائفية اليوم أصبح "الدين لنا والوطن كمان إن أمكنَ" ، وكثر شيوخ القبائل حتى أصبحنا لا نعرف لهم عددا، يزعم كل منهم أنه قد أمسك بمفاتيح الجنة يلوح بها للمريدين والمقابل بسيط "مصر" أو بالأحرى "جثة مصر" .

فيبدو المصريون اليوم وكأنهم قد تحولوا إلى مجموعات متربصة ببعضها البعض ، كل مجموعة تجري في اتجاه معاكس للأخرى حتى أصبحت المحصلة النهائية للمجموعات المتصارعة صفرًا كبيرًا أكبر حتى من صفر المونديال الشهير .

منذ مائة عام، وبينما كانت أمريكا ترزح تحت أفكار وممارسات عنصرية وعرقية دامية، وقف القس المصري في حرم الجامع الأزهر ووقف الشيخ المصري في حرم الكنيسة واضعين مصر في أفئدتهم وصوب أعينهم فيرفع المسلمون القس على الأعناق ويرفع المسيحيون الشيخ على الأعناق، ويواجه الجميع رصاص المحتل، فترتوي أرض مصر بدماء شهدائها البررة بينما أرواحهم تصعد إلى خالقها متعانقة متحابة.

وها نحن اليوم، فبينما تختار أمريكا رئيسًا أسود من أصل إفريقي مسلم في إعلان واضح لدولة تتجه صوب التسامح العرقي والطائفي، نجد مصر تتجه إلى الناحية العكسية فيتربص كل بالآخر، وعلى مصر السلام.

لقد اختار الأمريكيون أن تكون هويتهم الوطنية هي أساس اختياراتهم للمستقبل؛ وبالتالي أصبحت مصلحة الوطن ورفعته وسلامته فوق أي اعتبار وعليه فعجلة التسامح والعقلانية والعدل تتحرك إلى الأمام، بينما استبدل بعض المصريين هويتهم الوطنية بهوية عرقية وعقائدية ونفخوا فيها لتصبح وقودًا يغلق مفاتيح المستقبل ويحرق الجميع.

الفصل الثاني

مربط الفرس

لماذا كانت مصر في وضع أفضل مما أصبحت عليه ؟

لماذا تبدو مشكلات مصر بلا حلول ؟ مع أن الحلول معروفة ، وقد عملت بها دول أخرى كانت مشكلاتها أكبر منا ونجحت بل ونجت من مصير أسود بدا محتومًا .

لماذا تضيع جهودنا هباء ولا نشعر بتقدم مهما بذلنا من جهد؟

لماذا بِتْنَا نتقاتل مع بعضنا البعض على أتفه الأسباب غير عابئين بتأثير ذلك على وطننا ومستقبلنا ؟ ومستقبل أولادنا .

لماذا باتت مشكلاتنا مثل الدائرة المفرغة نلف وندور حولها بلا نتيجة؟ دائرة لا أول لها ولا آخر .

يزعم البعض أن حل المشكلة الاقتصادية سوف يحل بالتالي باقي المشكلات ، ويدعي آخرون أنه بدون حل للمشكلة السياسية فلا حل لمشكلات الاقتصاد ، وطبعًا تقف المشكلات الاجتماعية مثل عقلة في الزور تعرقل حل المشكلتين الأخريين ، وهكذا نظل ندور في ساقية بأعين حجب عنها ضوء النهار وغابت عنها البصيرة .

ألا يجب علينا أولا تحديد نقطة البداية وحجر الزاوية الذي سنبني عليه الأهداف التي نريد لمصر والمصريين الوصول إليها بوضوح وبلا مواربة أوْ خوف ؟

ونقطة البداية في أي مجتمع هي في معرفته بذاته أولًا وتحديد مميزاته النسبية وخصائصه التي يمكنه البناء عليها والتقدم إلى الأمام، وعلى هذا فإن:

- تحديد الهوية المصرية وتأصيل الانتماء للوطن في نفوس المصريين.
- والتأكيد على المكونات الثقافية والحضارية المصرية الإيجابية والدافعة للأمام.

لهما العاملان الرئيسيان ونقطة البدء الحقيقية التي ستمكّننا، في حال وضوحها والاتفاق عليها، من تحديد الطريق والأهداف، والتي ستجعلنا أيضًا نستبعد ما يعيق الوصول لهذه الأهداف بدون تكفير ولا تخوين.

ودعني أقتبس هنا من كتاب د. طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر" ص 18 حيث يقول:

" وأنا من أجل هذا مؤمن بأن مصر الجديدة لن تُبْتَكَر ابتكارًا، ولن تُخْتَرَعَ اختراعًا، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة، وبأن مستقبل الثقافة في مصر لن يكون إلا امتدادًا صالحًا راقيًا ممتازًا لحاضرها المتواضع المتهالك الضعيف. ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر في مستقبل الثقافة في مصر إلا على ضوء ماضيها البعيد، وحاضرها القريب؛ لأننا لا نريد ولا نستطيع أن نقطع ما بيننا وبين ماضينا وحاضرنا من صلة. وبمقدار ما نقيم حياتنا المستقبلية على حياتنا الماضية والحاضرة نجنب أنفسنا كثيرًا من الأخطار التي تنشأ عن الشطط وسوء التقدير والاستسلام للأوهام والاسترسال مع الأحلام".

وأود هنا أن أرجع بالحوار إلى ما قد يوضح أهمية تحديد هويتنا وثقافتنا وحضارتنا كمصريين في 4 نقاط أساسية:

أولا : مكونات الهوية ومصادرها

كما يقول صمويل هنتنجتون في كتاب "من نحن" الذي نشره بعد هجوم 11 سبتمبر هناك 6 مصادر أساسية تكوِّن هوية الأشخاص والجماعات :

1 - **النسب والعزوة:** مثل السلف ، الجنس ، الأقارب ، السلالة والعرق .

2 - **الثقافة السائدة:** والمستمدة من العشيرة ، طريقة الحياة ، اللغة ، الثقافة الوطنية ، الأديان ، الحضارة والمدنية .

3 - **التأثير الإقليمي:** التواجد في جوار معين بما يفرضه من جيران وقرى أو مدن محيطة إلى تأثير المنطقة الجغرافية والقارة .

4 - **التأثير السياسي:** من أحزاب وعصبيات ، نوعية القيادة والقائد ، جماعات الاهتمام والحركات السياسية ، القضايا الوطنية ، المذاهب والأيديولوجيات السائدة أو المحيطة ، الحكومات دورها وأنواعها .

5 - **التأثير الاقتصادي:** نوعية الوظائف والأعمال والمهن السائدة ، مجموعات العمل والنقابات ، أصحاب الأعمال ، أنواع الصناعات، الطبقة الاقتصادية .

6 - **التأثير الاجتماعي**: مجموعات الأصدقاء، الانتماء لنادٍ معين، الانتماء لفريق، زملاء العمل، مجموعات الاهتمام والهوايات، والوضع الثقافي.

7 - وفي حالة "مصر" يجب علينا أن نضيف أيضا مكونًا سابعًا مهمًّا وهو الامتزاج الحضاري الناشئ عن الغزاة بداية من الهكسوس مرورا بالرومان؛ فالعرب؛ فالأتراك مع قدوم الفرنسيين والإنجليز، وأيضا الامتزاج الحضاري الناشئ عن الهجرات فالأرمن واليونانيون والإيطاليون لهم بصمتهم أيضا على الحياة في بر "مصر".

وبناء عليه فإن اختزال الهوية الوطنية أو الشخصية في مكون واحد فقط لهو تسطيح للأمر، ومحاولة لطغيان جزء على الكل؛ مما يفرغ الهوية الوطنية من مضمونها الحقيقي، ويطمس ملامحها الأصيلة فدا أو بالأحرى تعصبًا لهذا الجزء مما يؤدي لتشوه واضح في الشخصية الوطنية، وبالتالي في توجهات الحاضر والمستقبل. وتبدو لنا أمثلة التعصب والتطرف لدين ما أو عرق ما، وما يترتب على ذلك من رفض للآخر ومحاولة تهميشه، بل وممارسة العنف ضده في كثير من الأحيان، جلية وواضحة.

و لنعد إلى ما يهمنا في هذا المقال "مصر". فنتيجة لتاريخ مصر الطويل والممتد، فلقد درج الباحثون على تقسيمه إلى حقب يمتد بعضها إلى آلاف السنين، ولكن في كل الأحوال، شئنا أم أبينا، فإن تاريخ الدولة المصرية من يوم ولادتها كدولة موحدة على يد مينا – في حدود جغرافية تكاد تطابق ما هي عليه الآن- يرجع إلى أكثر من 5200 عام (وفي بعض الدراسات 7200 عام) وبناء عليه فإن أي محاولة لقطع التواصل بين

المكونـات الأصيلة لهوية المصريين ، والمتكونة خلال هذا البعد الزمني العميـق ، إما زمنيًّا بادعاء أن إحدى هذه الحقب قد مات (الحقبة المصرية القديمـة تمتـد إلى أكثر من 5000 عام أي 70٪ مـن ذاكرة الوطن) ، أو دينيًّا بادعـاء أفضليـة أو أسـبقية دين عـن آخر (واللي سـبق أكل النبـق) أو حتى لغويًّـا باختزال الهوية في اللغة (التـي تمثل في واقع الأمر مكونًا واحدًا من مكونات الثقافة السائدة) يؤدي إلى :

1 - اسـتبعاد قطـاع كبير مـن المصرييـن من المعادلـة الوطنيـة التي يجب أن تجمـع الـكل اسـتنادا إلى وتد واحـد أصيل ممتد منذ فجـر التاريخ المصري وحتى الآن .

2 - تناحـر مجموعات مختلفة من أبنـاء الوطن تحت دعاوى انتمائهم إلى جذور مختلفة ، ليس بينها من رابط إلا تقاتلهم على قطعة أرض، يعتقد كل منهم أنه يملكها وحده .

3 - ضيـاع الوقت والجهـد والطاقة في جدل سفسـطائي بيزنطي لا بيودي ولا بيجيب إلا الفرقة والتشتت .

4 - ضيـق الأفـق وعـدم وضـوح الرؤيـة والهدف واسـتمرار الـدوران في الحلقة المفرغة .

5 - تفتـت الوطـن وضياعـه ، وحولنا نماذج لبنـان والسـودان والصومال واليمـن واضحـة وجلية ؛ حيـث يتم إعـلاء النزعة الطائفيـة العرقية أو الدينية فوق الانتماء الوطني ، ويصبح القتل على الهوية مكرمة للقاتل، وتقسيم الوطن طائفيًّا ، مكرمة للطائفة ، ولا عزاء للوطن .

وبالرغـم من حسـم رفاعة الطهطاوي للخلط الـذي يعتمده البعض بين الهويـة الوطنية والانتمـاء الديني منذ أكثر من 150 عامًـا ، فلا يزال البعض يتعمـد أن يخلـط بينهمـا ! وكأننا نأبـى إلا أن نجترَّ الأفكار والأسـئلة دون الأجوبة ، فماذا قال شيخنا في تعريف القومية والجنسية والوطنية :

"إن الملـة ، في عرف السياسـة ، كالجنس : جماعة الناس السـاكنة في بلـدة واحـدة ، تتكلم بلسـان واحد وأخلاقهـا واحـدة ، وعوائدها متحدة ، ومنقادة غالبا ، لأحكام واحدة ودولة واحدة . وتسمى بالأهالي ، والرعية، والجنـس ، وأبنـاء الوطن" . ويعلق على هذا الدكتور محمد عمارة فيقول: "فالملـة" هنـا تعني هنا وترادف "الجنسـية" و"القوميـة" .. وليـس ذلك فحسب، بل إننا أمام تعريف للقومية لا يجعل الدين عنصرًا من عناصرها ؛ لأن رفاعـة يفـرق بين الإخوة الوطنية التي تجمع أبناء الوطن الواحد ، على اختـلاف أديانهـم ومعتقداتهم ، وبيـن الرابطة الدينية التـي تجمع من يدين بديـن واحد من أبناء الأوطـان الأخرى ، فيرى رابطـة الوطنية رابطة عامة، ورابطـة الديـن رابطة خاصـة ، ويعتبر أن رابطـة الدين داخلـة تحت رابطة الوطنية ومتضمنة فيها" .

كما يتحدث الطهطاوي عن المخاطر والمضار التي يتعرض لها الوطن إذا مـا تدخلت حكومته في عقائـد رعاياها وتعصب الحكام لدين ضد دين فيقـول : " فـإن الملـوك إذا تعصبوا لدينهـم ، وتدخلوا فـي قضايا الأديان ، وأرادوا قلـب عقائد رعاياهم المخالفين لهم ، فإنما يحملون رعاياهم على النفاق ، ويسـتعبدون من يكرهونهم على تبديـل عقيدته ، وينزعون الحرية منه ، فلا يوافق الباطن الظاهر" .

نضيف إلى هذا أيضًا رأي شيخنا محمد عبده في انتفاء السلطة الدينية وتقريره لمدنية الحكم فيقول :

"ليس في الإسلام سلطة دينية .. وأصل من أصوله قلبها والإتيان عليها من أساسها .. والخلافة هي بالسياسة أشبه ، بل هي أصل السياسة.. والخليفة حاكم مدني من جميع الوجوه ..".

(الأعمال الكاملة ص 103) .

وفي هذا الصدد فإننا نخلط أيضا بين الهوية الوطنية وبين دوائر التأثير والتأثر ؛ فمنذ حوالي أربعة أشهر ، وأنا أطالع صحف الصباح فوجئت بهذا العنوان "مصر دولة خليجية" ، فبسملت وحوقلت وقلت في عقل بالي "يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم" ، ثم استعنت ع الشقا بالله وبدأت أقرأ . والغريب أنني عندما قرأت اقتنعت !! فالكاتب وهو الأستاذ مأمون فندي كان ببساطة يقول إن الكثير مما يؤثر على دول الخليج فهو يؤثر أيضًا وبالتبعية على مصر . وقد أفرد لهذا الأسانيد والحجج المقنعة من أول كمية العمالة المصرية إلى تحويلات العاملين إلى التهديد الإيراني ، وطبعا وجدت أن هذا كلام جميل ومعقول .

بعدها بشهرين تقريبًا صرخت جميع الصحف والفضائيات صراخًا مدويًّا ومتصلًا لتذكرنا بأن "مصر دولة إفريقية" وبالمصيبة السودة اللي وقعت على دماغنا لما نسينا إننا أفارقة ؛ فالإخوة الأشقاء في الجنوب قد بنو سدودًا على النيل والنيل كما نعلم "نجاشي" ولو ما جاشي والمية انقطعت يبقى على مصر السلام والخليج مش حينفعنا في حاجة . وطبعًا

جرينا إلى الإخوة لنذكرهم ونحلف لهم بأننا لسه أفارقة ودمنا "حامي" جدًّا جدًّا .

وطبعًا من أكثر من 50 سنة ونحن نعلم علم اليقين بأننا "دولة شرق أوسطية" غارقة لشوشتها في مشكلة الشرق الأوسط التي لا تريد أن تنتهي إلا على جثتنا .

وقطعًا سمعنا وأطعنا وغنينا وهيصنا مع وطني حبيبي الوطن الأكبر اللي يوم ورا يوم (حبيبي) أمجاده بتكتر وانتصاراته ماليه حياته ، وسلمنا وبصمنا بالعشرة أن "مصر دولة عربية" .

ثم يأتينا السيد ساركوزي ليذكرنا بأن مصر هي دولة أصيلة من دول حوض البحر الأبيض المتوسط ، وعيب علينا ننسى إسكندرية وعيون إسكندرية ، وأمواج الحضارة الرائحة والغادية بيننا وبين الإغريق واليونان والرومان والفرنسيس ، وطبعًا بما أننا أولاد حلال وما تهونش علينا العشرة الحضارية الجميلة فها نحن نقر ونعترف بأن "مصر دولة حوض بحر أبيض" بكل جدارة ، وقطعًا بعد أخبار غضب البحر المتوسط ، وتهديده لنا بإغراق الدلتا المصرية ، والدور المنتظر لدول حوض البحر في محاولات إنقاذ الدلتا ، فمصر كلها دولة متوسطية بنت متوسطية منذ الأزل وإلى أبد الآبدين .

و في هذا الصدد لا يمكننا أن ننسى أبدًا أن "مصر دولة فرانكفونية" ويُسأل في هذا السيد بطرس غالي الذي يمكنه أن يؤكد أصالة المكون الفرانكوفوني وعمقه في ثقافتنا ، وهل ممكن ننسى شامبليون اللي فك

مغاليق الحضارة المصرية ؟ وسليمان بك الفرنساوي ، وأفواج المصريين اللي رايحين وجايين ع السوربون . طيب ، وهي الشعوب إيه غير ثقافة؟

إذًا ، فعن أي مصر نتحدث ، وهل ما سبق من صفات هو تمثيل لهوية مصر وانتمائها الوطني أم لدوائر نفوذ ومصالح وتأثير وتأثر مختلفة ، وفي بعض الأحيان متباينة بل ومتعارضة ، فرضتها أحكام التاريخ والجغرافيا وعوامل الشد والجذب الإقليمي والحضاري .

واقع الأمر أن مصر هي القاسم المشترك الأعظم في كل ما سبق أن ذكرت من دوائر للفعل والتأثير والتأثر ، وهي موجودة في كل تلك الدوائر المهمة والمؤثرة بكونها وبشخصيتها الحضارية والثقافية وبهويتها المتفردة والمتميزة ، وهذا هو الحال مع كل الدول الواقعة في كل من هذه الدوائر.

ثانيا : تعريف الهوية

" الهويـة هـي إدراك الفـرد أو الجماعـة لذاتهـا ، وهـي نتـاج للوعي بالـذات، وبأننـا (كأفـراد ومجتمـع) نمتلـك صفـات واضحـة تميزنـا عن غيرنا" (صمويل هنتنجتون).

وفـي هـذا الصدد يعتقـد البعض أن الانتمـاء لمصر بالأسـاس واعتماد الهويـة المصريـة هو انكفاء علـى الـذات وتقوقع يفصلها عـن محيط أعم وأشـمل (عربي أو إسلامي أو مسـيحي!!) بينما على الجانب الآخر فهناك مـن يـرى بـأن اعتمـاد المصريين هوية أخـرى غيـر نابعة من مصـر هو في حقيقـة الأمـر عدم وعي بالـذات المصريـة ، ومحاولة تهجين فاشـلة تنتج أجيالًا مشوهة وممسوخة لا تصل ماضيها بحاضرها فيتوه عنها المستقبل ، وبالتالي تذوب مصر وتختفي .

ولكن ما واقع الأمر وحقيقته؟ واقع الأمر أن العالم الأول بأكمله ينسب نفسـه إلى مصر وإلـى الحضارة المصريـة ؛ باعتمادها الحضـارة الأم التي

أنـارت العالـم والتي نهـل منها مبادئ حضارته وأخلاقياتـه ، بل التي أثرت علـى معتقداته الدينية والروحيـة (المراجع التي تثبت هـذا أكثر مما يمكن حصـره وقد يكون كتاب فجر الضمير لهنري جيمس بريسـتد من أشـهرها وأهمهـا) فهو يدرّس عظمـة وقدرة هذه الحضارة لأطفالـه في المدارس ، ويحتفـظ بكنوزهـا في المتاحـف من برلين إلـى اللوفر ومن برشـلونة إلى المتحـف البريطانـي ، يفخر بوضع مسـلاتها فـي ميادينه ، ووعيـا بأهميتها ينشئ علم المصريات الذي تنفرد به مصر وحضارتها عن كل دول العالم.

بـل يسـتلهم فنونـه منهـا ، فمـن عايـدة لفيـردي ، أنطونيـو وكليوباترا لشكسـبير، كفـاح طيبـة ورادوبيـس لنجيـب محفـوظ ، الموميـاء لشـادي عبد السـلام ، كليوباترا (إليزابيث تايلور) ، حتى الكيميائي لباولو كويهلو ، وشفرة دافنشي لـ دان براون حيث تأثير مصر الحضارة والديانة والأساطير منثور على صفحات الكتاب .

و قـد أنتجـت السـينما العالمية في الفتـرة من 1999 إلـى 2009 حوالي 170 فيلمًـا ، بين وثائقـي ودرامي . إما عن مصر أو مسـتلهمًا من الحضارة المصرية بواقع 17 فيلمًا سـنويًا ، وقد أنتجت فرنسا أول فيلم عن مصر عام 1898 !! كما هو مذكور في موقع "الولع بمصر" .

أيٌّ بلد بل أي حضارة أخرى عاشـت 7000 عام ولها مثل هذا التأثير؟ ألا يعنـي هـذا ببسـاطة ويثبـت بلا مواربـة أن مصـر تمتلك هويـة واضحة ومتميزة عن كل ما حولها ؟ بل وعن حضارات العالم أجمع ؟ هل غشـيت الحقيقـة أبصارنـا فصرنا كمن يحمل أسـفارا لا يقدرها حـق قدرها؟؟ هل يعقـل أن يصبح الشـعب الذي يمتلك الحضارة الأعظم في تاريخ البشـرية

هائمـا على وجهه باحثا عن هويته في بـلاد أخرى ، بل ويعتنق أفكارا تهدم حضارته وتكفرها ؟

أليـس مـن قبيل العقل أن تنتسـب مصـر لحضارتها ؟ وأن يعـود العالم لينهـل منها العلـم والمعرفة؟ أليس من العقل أن نمـد جذورنا في أرضنا ؟ ونطرح مرة ثانية ثمار الفن والجمال و الحضارة للعالم أجمع؟؟

نعود هنا مرة أخرى إلى طه حسين حيث يقول:

" إذا صـح أن المسـيحية لم تمسـخ العقـل الأوروبي ولـم تخرجه عن يونانيتـه الموروثـة ولـم تجـرده من خصائصـه التـي جاءته من قيـم البحر المتوسـط ، فيجب أن يصح أن الإسـلام لم يغير العقل المصري أو لم يغير عقل الشعوب التي اعتنقته والتي كانت متأثرة بهذا البحر الأبيض المتوسط، بل يجب أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول مطمئنين إن انتشار الإسلام في الشـرق البعيد وفي الشـرق الأقصى قد مد سـلطان العقل اليوناني وبسـطه على بلاد لم يكن زارها إلا لماما " .

يمكننـا طبعًا النظـر إلى الدول الإسـلامية وغير الإسـلامية التي نقارن مصـر بها طـوال الوقـت والتـي اسـتطاعت تحقيق طفـرات سـريعة برغم الكوارث والمشكلات التي واجهتها مثل تركيا وإيران وإندونيسيا وماليزيا، ونتساءل:

- هل تخلى الأتراك عن هويتهم التركية ؟ أو لغتهم القومية؟
- هل الأولوية التركية تكون في تعريب تركيا ثقافيًا أو سياسيًا ؟
- هل الأولوية في تركيا تكون في إعادة الخلافة الإسلامية أم في الانضمام للاتحاد الأوروبي؟

- وهـل لعنـت إيـران الحضارة الفارسـية المجوسـية ؟ أم احتفـت بها في الشهنامة ؟

- هـل قـررت أي مـن هذه الـدول تغيير انتمائهـا الوطني للارتبـاط بقومية أخرى ؟

- وهل تدعي ماليزيا شيئا آخر غير أنها "آسيوية خالصة" وهي تروج لنفسها سياحيا صباح مساء؟

أما اليابان وألمانيا فبرغم الدمار الرهيب الذي حدث فيهما بعد الحرب العالميـة ، فـإن القومية الألمانيـة والوطنية اليابانية لم تمـت ولـم يفكر أحد منهم في تغيير لغته وثقافته وارتباطه بتاريخه .

أيٌّ من هذه الدول تخلى عن هويته الوطنية ؟ أو ثقافته؟ ومن منهم فرح بـأن يلعـب دور الأم الكبرى وحلال المشـكلات وحامي الحمى متناسـيا أولوياته الداخلية واحتياجات شعبه أولًا ؟؟؟

الأهـم مـن هـذا وذاك ، ألـم يكـن ارتباط هـذه الشـعوب بحضارتها هو الأساس والوقود لنهضتها والقيام من عثرتها؟

ودعني هنا أنقل عن كتاب د . محمد كامل ضاهر (الصراع بين التيارين الديني والعلماني، في الفكر العربي الحديث والمعاصر) فقرات عن تقييمه لأفكار رفاعة الطهطاوي الذي قاد التنوير في مصر بعد عودته من فرنسا عام 1831 حيث يقول :

" نشـأ في مصر جيل من المثقفين لـه الأفكار والاتجاهات الإصلاحية نفسـها ، إلا أنهـا امتزجت بشـيء جديد هـو محبة الوطن (مصـر) والتغني

بأمجاده الحضارية وكان رفاعة الطهطاوي إمام هذا الاتجاه وزارع بذوره"..

"ومن الواضح أن وطنية رفاعة كانت مصرية علمانية صميمة ، لا إسلامية ولا عربية ، وهي تشمل قدماء المصريين قبل الفتح الإسلامي، وأبناء مصر من غير المسلمين ، وقد امتلأت كتاباته الأخيرة بمشاعر الاعتزاز والفخر بأمجاد قدماء المصريين ، وبحب عميق لبلاده ؛ إذ يصفها بأنها وحدة حية مستمرة من أيام الفراعنة حتى أيامه " ..

"لم تكن وطنية الطهطاوي حلمًا شاعريًّا ، وإنما تقدمًا وتطورًا وحضارة ، وارتباطًا بنظام سياسي علماني يحفظ الحريات ، ويصون العدالة والمساواة بين جميع المواطنين ، وينمي الاقتصاد ويطور المؤسسات العلمية ، وفي مقدمتها الجامع الأزهر ؛ لتساهم جميعا في نشر ثقافة عقلانية ، تؤدي إلى ازدهار مصر وعظمتها التي كانت لها - يومًا - في قديم الزمان"

ألم تكن هذه الأفكار الوطنية هي الزاد الحقيقي والمحرك الفكري للنهضة المصرية التي بدأت مع محمد علي ، والتي أنتجت أعلام الفكر والتنوير الذين نفخر بهم ؟ ترى كيف سيكون حالنا لو درسنا أفكار رفاعة الطهطاوي وطه حسين المعبرة عن احتفائهم بوطنهم وحضارته وتعزيز الانتماء له وعملنا بها ؟

ثالثا : أهمية الهويـة

كمـا يقـول صمويـل هنتنجتـون "إن هويتنـا تحـدد اختياراتنـا وبالتالي مستقبلنا".

هذا هو مربط الفرس ، إن "اختياراتنا للمستقبل" مبنية على هويتنا وكيفية رؤيتنا لأنفسنا مقابل الغير .

فلنتخيـل معـا أننـا قد قررنـا الاسـتماع إلى وصيـة طه حسـين ورفاعة الطهطـاوي ، وأن السـيد وزيـر التعليـم قـد قـرر تأصيـل الهويـة المصرية وتدريـس علـم المصريـات فـي المـدارس ، وكـذا فعـل شـيخ الأزهر في المـدارس الأزهريـة ، بينمـا قرر وزير الأوقـاف وبابا الإسـكندرية تدريس كتـاب فجـر الضميـر (مثـلا) – والـذي يوضح فيـه هنري جيمس بريسـتد قيمـة القيم والأخلاقيات والديانة المصريـة وتأثيرها على القيم والديانات التالية – على أئمة المساجد وقساوسة الكنائس .

- ألا تعتقد معي أن هذا سيغير وجه مصر ؟؟
- ألا تعتقد أن هويتنا وانتماءنا سيصبح واضحًا بلا مواربة؟
- ألا تعتقد أن حدة الفتنة الطائفية الجهولة سوف تخفت ؟
- ألا تعتقد أن نظرتنا للدين والتدين الشكلي ستتغير ؟
- ألا تعتقد أن المصريين سيصبحون أكثر حبًّا واعتزازًا بوطنهم ؟؟؟
- ألا تعتقد أننا سنصبح أكثر قربًا من قيم الحضارة الإنسانية؟؟؟

* * *

في المقابل :

- كيف يمكننا التقدم ونحن لا نعي 70٪ من ذاكرة أمتنا المصرية ؟
- كيف يمكننا القيام بدورنا الحضاري ونحن نكفر حضارتنا ؟
- كيف يمكننا قيادة الآخرين ونحن نبحث عن كفيل ؟
- كيف يمكننا طرح ثقافتنا وأفكارنا على الآخرين ونحن نتبع معتقداتهم وأموالهم في تطبيق مفاهيمهم الثقافية في السينما النظيفة (الفجة) وحرمانية النحت والتصوير؟
- وكيف نترك مفكرينا وفنانينا نهبا لدعاوى الحسبة ؟ أو لجرائم القتل؟ ثم نرجو تقدمًا وازدهارًا؟

وإذا كان هذا التعريف للهوية يهتم بالمستقبل أساسًا ، فيمكننا أيضًا تطبيقه على أحداث الماضي علنا نفهم بشكل أوضح ، فعلى سبيل المثال قد يجوز لنا أن نتساءل :

- هل اختارت مصر التضحية بزهرة شبابها وقواتها في حرب اليمن ، التي تعد أحد أسباب هزيمة 1967 ، كنتيجة لتبنيها هوية عربية بالأساس ؟ أو تحت غطاء عروبتها ؟ ![*] .

- هل اختار بعض المصريين طريق الإرهاب وترويع إخوة الوطن كنتيجة لتبنيهم هوية عقائدية بالأساس؟

- ألم تكن فترات التقدم والتنوير في تاريخ مصر نتيجة طبيعية لانتماء المصريين الواضح للوطن العزيز مصر ؟

(*) من المضحكات المبكيات أن اليمن قد أسقطت من اسمها هويتها العربية فسميت بعد التوحيد "جمهورية اليمن" وألغت صفة "العربية" والآن تجتمع دول الخليج مع أمريكا والدول الأوروبية لتوفير حماية وقوات أجنبية على أرض اليمن. ورحم الله شهداء مصر الأبرار الذين بذلوا أرواحهم تحت رايات اليمن العربي السعيد.

رابعا : خصوصية الهوية الثقافية وتطور المجتمعات

يقول د . أحمد زويل :

"كنت في الماضي أختزل التفكير في أسس التطور إلى هذين البعدين المهمين ، السياسي والاقتصادي ، لكنني أصبحت الآن أكثر تقديرًا للدور المهم للبعد الثقافي ، البعد الذي لا ينحصر فقط في دور الكتب والصحف والسينما والمسرح ، وإنما يشمل الدور المحوري لعادات وخصائص الشعوب" .

كما يقول ماريانو جريندونا في كتاب "الثقافة مهمة" أو "الثقافة فارقة"، والذي يؤصل لأهمية الدور الذي تلعبه ثقافة وحضارة وهوية الشعوب في إحراز التطور الاقتصادي المنشود ، أو في البقاء رهينة للتخلف ، يقول ماريانو:

"إن القيم المقبولة أو المرفوضة بواسطة المجتمع (أو الدولة) تقع في إطار ثقافة هذا المجتمع . وعلى هذا يمكننا القول بأن التطور والتقدم الاقتصادي لهو منظومة ثقافية وحضارية" .

ويستطرد في إضافة دالة :

"إن التخلف الاقتصادي في أي مجتمع لهو حالة ذهنية فكرية بالأساس" .

ثم يحدد ماريانو 20 عاملًا ثقافيًا وحضاريًا مؤثرًا بشكل مباشر في عملية التنمية الاقتصادية، وقد يمكننا بعد عرض هذه النقاط الـ 20 أن نرسم صورة للنسق الفكري والثقافي الحالي في مصر ؛ لنتبين أين نحن من ثقافة التطور .

العوامل الثقافية المؤثرة على تطور المجتمعات أو تخلفها:

1- الأديان:

تاريخيًا ، الأديان هي أكثر منابع القيم ثراء . في الدول القابلة للتطور القيم الدينية في المجتمع تنظر بشكل متوازن بين الفقير والغني . أما الدول المقاومة للتطور فإنها تعتبر الفقر ابتلاء إلهيًا والغنى خطيئة .

2- الثقة في الفرد (أفراد المجتمع) :

إن عمل الأفراد وإبداعهم لهو المحرك الأساسي للتنمية الاقتصادية .

إن مناخ الحرية الذي يشعر فيه الأفراد بإمكانية تحكمهم في مستقبلهم لهو الدافع لهم لبذل الجهد والإبداع .

سوف يخبو الجهد المبذول من أفراد المجتمع إذا شعروا بأن المسئولية لا تقع على عاتقهم . إذا فرضت عليهم أفكار ومعتقدات ، ستكون النتيجة فقدان الحافز والإبداع ، واختيار طريق من اثنين ؛ إما الانزواء أو الثورة على الرغم من أن الانزواء والثورة لن يحققا التقدم!!! . فالانزواء يقتل

المبدعيـن والثـورة تحيد بطاقـات المجتمع من الجهد البنـاء إلى المقاومة ووضع العراقيل والتدمير .

إن الإيمـان بالفرد والثقة به لهو أحد قيم التقدم المهمة ، بينما عدم الثقة في الأفراد وازدياد محاولات المراقبة والسيطرة عليهم ، لهي من مؤشرات مقاومة التطور .

3- التوافق بين القيم والقانون:

فـي الـدول القابلة للتطور يوجد توافق كبير بين قيـم المجتمع والقانون وتطبيقه .

فـي الـدول المقاومـة للتطـور يسـود قانـون الغـاب حيث "الشـطارة" و"القوة" هما القانون السائد .

4- منطق الثروة:

في الدول المقاومة للتطور تتركز الثروة فيما هو قائم وموجود بالفعل ؛ مثـل الأرض وما يقام عليها أو يسـتخرج منها ، أما في الدول المتطورة فإن منطق الثروة يعتمد على منظومة الإبداع الواعدة (المستقبلية) .

5- وجهتا نظر للمنافسة:

تفضـل الدول المقاومة للتطور أفكارًا مثـل الاتحاد والولاء والتعاون ، بينما الدول المتطورة تقوم على مبدأ المنافسـة بل تراها شـكلًا من أشـكال التعـاون ؛ حيـث تتنافـس الأطـراف المختلفة للوصـول إلى أفضـل نتائج ممكنة .

6- عدالة التوزيع:

تهتم الدول المقاومة فقط بالمواطنين الحاليين ، ويظهر هذا في معدلات الاستهلاك الحالية ، بينما تأخذ الدول المتطورة - في الاعتبار - الأجيال القادمة فتستهلك أقل وتدخر أكثر .

7- قيمة العمل:

في الدول المقاومة رجل الأعمال متهم ، والعمال الذين يكدحون على رزق يومهم يجدون أنفسهم في أسفل السلم الاجتماعي ، بينما على قمة السلم نجد المتعلمين والفنانين والسياسيين والقادة الدينيين .

هكذا كان يتشكل هيكل التدرج الاجتماعي بالعالم المسيحي ، حتى تمت إعادة الهيكلة وتثمين قيمة العمل .

8- من الهرطقة إلى الإبداع :

المعاصي والخطايا يمكن غفرانهما في المجتمعات المقاومة ، بينما الفكر الحر المتشكك المتسائل المبدع هو أمر لا يمكن غفرانه!! .

في الوقت نفسه فإن العقل الحر المتشكك المتسائل المبدع هو المحرك الأساسي للتطور الاقتصادي .

9- من التعليم إلى غسيل المخ :

تعزز منظومة القيم المشجعة على التطور تكوين أفراد مبدعين (وبالتالي متشككون) ، وهذا يتأتى من منظومة تعليم تساعد الأفراد على معرفة الحقائق ؛ حقيقة ذواتهم بأنفسهم ، وليس بإملاء "الحقيقة" عليهم.

في الـدول المقاومة منظومة التعليم تلقن عقائد ثابتة (مقدسـة) ، فتنتج تابعين ملتزمين .

10- من العملي إلى الكوني :

تتبنى الـدول المتطورة نظريات يمكن مراجعتها وتطبيقها ، بينما الدول المقاومة تتبنى نظريات كونية .

11- القيم البسيطة:

تهتم المجتمعات المتطورة بإنجاز العمل "بدقة" و"دأب" و"في الموعد المحدد" ، وأيضا "باحترام احتياجات الآخرين" .

12- عن أي زمن نتحدث ؟؟ :

توجـد أربعة مسـتويات للزمـن "الماضـي" ، " الحاضر" ، "المسـتقبل القريب" و" المستقبل البعيد المندمج مع الحياة الآخرة" .

الدول المتطورة تهتم بالمسـتقبل الذي يمكـن رؤيته والتخطيط له ، أما الـدول المقاومة فلديها ارتبـاط مرضي بالماضي وتركيـز دائم على ما بعد الموت .

13- العقلانية:

فـي الـدول المتطورة يتأتـى الرضا مـن مجموعة كبيرة مـن الإنجازات الصغيـرة ، أما في المجتمعـات المقاومة فإن فكرة المشـروعات الضخمة والمشـروع القومي هي المسيطرة . وهكذا تنتهي الأحلام بمشروعات غير مكتملة .. ولكن ، لا يوجد مشكلة ، فغدًا يظهر حلم جديد .

14- من سلطة القانون إلى سلطة القدر:

المجتمعـات العقلانيـة المتطـورة تعتمـد سيادة القانـون ، بينمـا فـي المجتمعات المقاومة فإن السـلطة للأمير أو الحبر الديني الأعظم أو القدر الذي لا يمكن توقعه والتنبؤ به .

و عليـه ، يجـب علـى الشـعب أن يتملق من فـي يده السـلطة ، بدلًا من الالتـزام بقوانين واضحة ومحـددة ، ونتيجة لذلك تظل الدولة في حال من عدم الاستقرار .

15- رؤية العالم :

في الدول المتطورة ، العالم هو سـاحة العمل التي تنتظر من يقدر على العمل فيها بل وتغييرها .

الدول المقاومة ترى العالم سـاحة لقوى مسيطرة وقاهرة لا قبل له بها، ولا قـدرة على تغييرهـا ، وبالتالي فالخلاص لا يكـون إلا من خلال أفكار دينية طوباوية تدفع الأفراد إما إلى التطرف أو إلى الانكفاء والسخرية وتبني فضائلهم الخاصة .

16- النظرة للحياة:

الفرد – في الدول المتطورة – يرى في نفسـه البطل الذي سـيقوم بتغيير الحياة إلى الأفضل ، أما في الدول المقاومة فالحياة تتحكم في الفرد وعليه الانصياع لها .

17- الخلاص من العالم:

يكون الهدف في الدول المقاومة كيفية إنقاذ الفرد لنفسه من هذا العالم (الدنيا) . طبقا للفكر الكاثوليكي المحافظ فما العالم إلا "سـاحة للدموع"

ويجب علينا إنقاذ أنفسنا بتجنب المغريات انتظارا للعالم الآخر بعد الموت.

بينما في الفكر البروتوستانتي ، فإن الخلاص في العالم الآخر يعتمد على جهد الأفراد وقدرتهم على تغيير العالم (الحياة) للأفضل .

18- عن أي يوتوبيا نتحدث :

في الدول المتطورة ، يتجه العالم إلى يوتوبيا المستقبل المنظور ببطء خطوة بعد أخرى ، كنتيجة لجهد وإبداع الأفراد . في الدول المقاومة ، فإن الأفراد يبحثون عن يوتوبيا آنية من الصعب تحقيقها .

19- التفاؤل:

في الثقافات المقاومة للتطور يكون المتفائل هو الشخص الذي يتوقع أن الله ، وربما الحظ أو المسئول سوف يفضله ويكافئه .

أما في الثقافات المتطورة فإن التفاؤل يكون من نصيب الأفراد الذين يؤمنون بأن ما يفعلونه من جهد سوف يصل بهم إلى مستقبل أفضل ومُرْضٍ لهم .

20- الديمقراطية :

تتبنى الدول المتطورة بوضوح مبادئ سيادة القانون وفصل السلطات والديمقراطية .

* * *

بمراجعة هذه النقاط العشرين ، قد يتضح لنا بجلاء أن النسق الفكري والثقافي الحالي في مصر مقاوم للتطور بامتياز ، تتضافر فيه الأفكار

والقيم المقاومة معًا في مجموعات تضرب في مناحي التطور الاقتصادي والاجتماعي المصري وتنخر فيه بلا هوادة .

وقد يمكننا هنا ضرب بعض الأمثلة من واقعنا المصري الحالي:

* الالتزام بقيم التواكل :

خَفَتَ صوت التوكل بما يفرضه ذلك من الأخذ بالأسباب وتبني العلم والحداثة وقيم الحضارة ، بينما علا صوت التواكل ؛ حيث المسئولية غائبة والقدرية سائدة ، والعمل يتوقف عند حد الدعاء ، وبالتالي تبنت قطاعات كبيرة ومؤثرة من المجتمع تصرفات تضرب في صميم التطور الاقتصادي، الذي يمثل البشر وحدته الأساسية ولبنته الأولى .

* رفض الحضارة وقيمها:

إذا كان المجتمع يوصم حضارته القديمة بأنها وثنية، وأن الآثار أصنام ويتصرف على هذا الأساس فكيف يمكن لقطاع اقتصادي مُهم ومؤثر مثل قطاع السياحة أن يتطور؟ تتساوى هنا أفغانستان التي فجر فيها طالبان تمثالي بوذا، ومصر التي تم فيها الاعتداء على السياح أكثر من مرة. وعندما نضيف إلى ذلك رفض قيم الحضارة الحديثة أيضا نصبح أمام وضع مأساوي بامتياز ، فالجذور مقطوعة ، وضوء الشمس محرم ومكروه ، وما زلنا نصرخ طلبا للثمار!!

* قتل الإبداع :

أصبح الفكر المبدع ضالا يجب على الجميع مصادرته ومحاربته بل وقتله إن لزم الأمر ، وبالتالي اضمحلت قطاعات الفكر والفن والثقافة بما يستتبعها من صناعات السينما ، والمسرح ، ودور النشر ، والمطابع

والمعارض؛ مما أثر تأثيرًا سلبيًا ومباشرًا، ليس فقط على التطور الاقتصادي بقطاع الثقافة والإعلام ككل، ولكن أيضًا على قوة مصر الناعمة في المنطقة والتي تمثل في واقع الأمر أهم قوة تمتلكها مصر على مر العصور .

*** تبني قيم الشطارة والفهلوة:**

تبني قطاع كبير من المجتمع لأفكار وأعمال، تعتبر القفز على القانون شطارة وتغييب القانون فهلوة، وتفشي السوق السوداء للعملة في وقت من الأوقات - قد يمثل نموذجًا واضحًا لذلك، بينما استمرار أفراد المجتمع في التعامل مع رموز السوق السوداء، الخارجين على القانون، بعد تغيير نشاطهم إلى شركات توظيف أموال لهو أمر عجيب، والأعجب منه تحريم البنوك لصالح شركات التوظيف! وبالطبع كانت النتيجة كارثية ضربت في اقتصاد المجتمع وفي مدخرات أفراده وفي مصداقية النشاط الاقتصادي ككل .

*** تجريف المستقبل:**

عندما تتدنى قيم الإبداع والعمل مع ازدياد اعتقاد الأفراد بأن مستقبلهم يبدأ بعد النزول إلى القبر فإن "التسقيع" يصبح النشاط الاقتصادي الأمثل في المجتمع ويصبح استهلاك الموارد الطبيعية هو النشاط الأساسي لأفراده، تجريف الأرض الزراعية والبناء عليها، وإغلاق الشواطئ المصرية على الخاصة القادرين لهي مجرد أمثلة على تدمير المستقبل لصالح الحاضر.

*** تأصيل ثقافة القطيع:**

قولبة العقل لضمان عدم الخروج عن ثوابت القطيع عن طريق تأصيل قيم الحفظ والصم والتلقين، ينتج قوى عاملة راكدة وغير مطلوبة في سوق

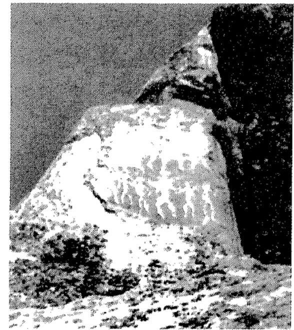
العمل ، بل وغير قادرة على التعامل مع مفاهيم العصر ومتطلباته ، حتى أصبح إيجاد سوق للعمالة المصرية ، سواء داخليًّا أو خارجيًّا ، يتدنى كيفيًّا بل يضيق عامًا بعد الآخر مع ما يمثله ذلك من أضرار على المستوى الفردي وأيضا على المستوى القومي .

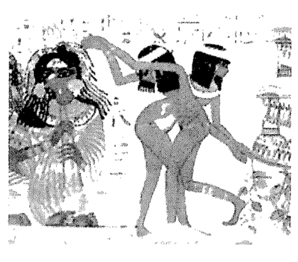
*** افتقاد الأمل:**

اضمحل إيمان الفرد بذاته وبقدرته على تغيير واقعه ومستقبله . فهناك مجموعات ضخمة ممن يهربون داخل الوطن بالانزواء والتقوقع نتيجة للشعور بالاضطهاد ، وممن يرفضون التعامل مع المجتمع ويكفرونه، وممن يهربون على مركب لا يعلمون أين مرساها . وتزداد الخطورة بدخول الطبقة الوسطى إلى داخل مستنقع اليأس هذا مما يعطل القاطرة الأساسية التي يعتمد عليها المجتمع في تصحيح مساره ودفعه إلى الأمام ، فتتضاءل فرص تطور المجتمع وتنميته .

*** اعتماد العنف والقهر:**

صور العنف والقهر الفكري والبدني أصبحت معتادة بشكل غير مسبوق ، والنقاش في أي موضوع لا ينتج عنه إلا اتهامات متبادلة ، تتطور في أحيان كثيرة إلى شتائم ثم ترفع الأحذية أو السكاكين والسواطير ، وينتهي الأمر إما بمصادرة الفكر المخالف وحجبه أو بقتل المخالفين ، وعليه يطفو على سطح المجتمع طبقات تلتزم قيم البلطجة أو الشوارعيزم - كما يطلق عليها الأستاذ عمرو عبد السميع - ويصبح الحوار المجتمعي الهادف ترفا لا نقدر عليه ، وبالتالي نعيش ضجيجا صارخا منفلتا بلا طحن ولا نتيجة إلا بالسالب .





الثقافة هي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية كلتشرا = cultura وهذه الأخيرة مشتقة بدورها من كلمة كولير = colere، والتي تعنى "يزرع الأرض"

ويمكن استخدام كلمة "ثقافة" في التعبير عن أحد المعاني الثلاثة الأساسية التالية:

- التذوق المتميز للفنون الجميلة والعلوم الإنسانية، وهو ما يعرف أيضا بالثقافة عالية المستوى.
- نمط متكامل من المعرفة البشرية، والاعتقاد، والسلوك الذي يعتمد على القدرة على التفكير الرمزي والتعلم الاجتماعي.
- مجموعة من الاتجاهات المشتركة ، والقيم، والأهداف، والممارسات التي تميز مؤسسة أو منظمة أو جماعة ما.

- من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة – صفحة الثقافة

الفصل الثالث

حدوتة مصرية جدًا

"لم تات مصر مــن فراغ ، ولم تكن
وليــدة صدفــة أو مجرد لحظــة إبداع،
ولكنهــا كانت بنــاء فلســفيًّا جعل من
الوطــن فكرة ينتصـــر بها الفــرد على
هشاشـــته وعمره الموقوت ، ويتصالح
بها مع حتميــة نهايته من خلال دوام
واستمرار هذا الوطن "مصر" .

(مايكل رايس – صنع مصر)

سحر الحضارة المصرية

بعـد الجولـة الصباحيـة الطويلـة فـي الجنـاح المصـري بمتحـف المتروبوليتـان ، وبعـد الفرجـة علـى المهرجـان البورتوريكـي دخلنا إلى تلك الحديقة الجميلة الموجودة بقلب نيويورك لنجد شـبابا في عمر الورد يقـودون دراجات هوائية ذات ثـلاث عجلات مثبت بها كنبة ، ممكن تقول كده توك توك صديق للبيئة ، أخذنا الشاب حتى الفندق المطل على ال تايم سكوير ؛ حتى نرتاح قليلا، لكي يمكننا الذهاب إلى عرض "الأسد الملك" في المساء ، وهو عرض مسرحي موسيقي رائع أتمنى أن نستطيع رؤيته في الأوبرا المصرية .

العـرض يحكي قصـة رأيناها كثيـرًا " الأخ الحاقد علـى أخيه الملك ، والـذي يقـوم بتدبيـر مقتله حتى يـرث المملكة ، والابن الـذي يكبر فينتقم لأبيـه ويعيـد ملكـه وحقـه ، ويعـود العـدل والخيـر للمملكـة" القصة في هيكلها الأساسـي وحتى بعض تفصيلاتها هي اقتباس واضح لقصة إيزيس وأوزوريـس وحـورس ، وكما تدلـل على ذلك د . ميرفت عبـد الناصر في

كتابها الرائع "لماذا فقد حورس عينه" فتقول " والدليل على ذلك شخصية رفيكي في "الأسد الملك" الذي يلعب نفس الدور الذي يلعبه " تحوت" في الأسطورة المصرية والذي يصوره ديزني في صورة البابون وهو نفس الرمز الذي أعطاه المصري لرب الحكمة تحوت" .

في اليوم التالي ركبنا الطائرة لنذهب إلى بلدة صغيرة اسمها وستن ، بالقرب من ميامي في ولاية فلوريدا ، وهي بلدة صغيرة جدًّا ما فيهاش سياحة ولا جمال ولا جيف ات بقشيش ولا حاجة وأنت لا ترى على مدد الشوف إلا بحيرات صغيرة وأشجار زاهية الاخضرار وسماء زرقاء ، حتى البيوت مختفية خلف الأشجار ، طبعًا يقفز إلى ذهنك فورًا المقارنة الدائمة بين مصر للطيران وشعار حورس الملكي الجديد يزين طائراتها وبين الشركة الأمريكية ، وبصراحة كده مصر للطيران أفضل من جميع الوجوه ويا رب دايمًا .

في الصباح ذهبنا إلى المركز التعليمي الذي سيلتحق به أدهم لتقابلنا "تيا"!! مديرة المركز السمراء وطبعا بادرتها بحتة مصري فيها شوية فشخرة وقلت لها:

- "تعرفي إن تيا ده اسم ملكة مصرية" .

- "ياه ده انا كنت فاكراه كلمة يونانية تعني أميرة أو ملكة" .

- " تيا دي تبقى زوجة الملك أمنحوتب الثاني وأم تحتمس" .

فصاحت تيا في وجه المدرسين "شفتم آهة أنا ملكة مصرية ومش حاقبل أي معاملة إلا على هذا الأساس" .

الغريب في الموضوع أن تمثال تيا الموجود في المتحف المصري يشبه كثيـرًا تيـا الأمريكية !! وغريب ليـه ، د . زاهي حواس وجـد وجهًا فرعونيًّا شبيهًا لأوباما في أثناء زيارته للأهرامات ، حتى الودان الخالق الناطق ودان أوباما ، يا سبحان الله .

المهم ، بما أننا أسرة محبة للسينما سألنا ملكتنا الحبيبة تيا لكي تدلنا على مكان لدار عرض حتى نشاهد أحدث الأفلام الأمريكية طازجة بنار الفرن، فضحكت الســت تيا ، وأعطتنا العنوان وقالت في خبث أمريكي "حتشوفو هنـاك مصـر" ، خدنا العربية وذهبنا حسـب الوصف إلى دار الســينما لنجد هناك ... مصر !!!

دار السينما عبارة عن مجمع سينمات ضخم يضم أربعًا وعشرين صالة عـرض ، وهـذا المجمع مصمم على شـكل معبد فرعوني بديـع الجمال ، يستقبلك أمام المجمع خطان من الفسيفساء زرقاوان يمثلان النيل الأبيض والنيـل الأزرق يتعرجـان أمامك حتى يلتقيا عند مدخل السـينما ثم يمتدان بطول البهو الداخلي حتى يتفرعا ، كما تفرع النيل في الدلتا المصرية ، عند نهاية المدخل أمام أماكن بيع الفشار والمثلجات !!

ثم دخلنا فيلما باسم المتحولون لنجد نفسنا وللمرة المليون في حضن مصر!!!

هـوه فيه إيه ؟ هـل أصابنا عته منغولـي واللا حاجـة؟ ازاي تبقى العالم كلهـا منبهـرة بحضارتنا واحنـا ولا حتى نعرف عنها حاجـة ؟ ولا همانا ف حاجة !!

زاد وغطي هذا السؤال الذي افتتحت به الست تيا حديثها مع أدهم في صباح اليوم التالي :

- تفتكر مصر حترجع تاني ؟

رد عليها أدهم بكل ثقة وعفوية ، وبكلمة واحدة فقط :

- طبعًا ..

يفترض هذا السؤال ، الذي نكرره نحن أيضا كثيرا ، ثلاث مسلمات:

- أن المصريين كانوا في حال أفضل مما هم عليه الآن .

- أن شيئا ما قد حدث للإنسان المصري أوقف التواصل بين ما كنا عليه من حال "أفضل" وبين حالنا الآن "الأسوأ" .

- إننا لم نحدد بعد بشكل قاطع وواضح السبب الرئيسي لما حدث؛ وبالتالي لم نتوصل لنقطة البداية التي يمكنها أن تصلنا بما سبق ، وتمكننا من اللحاق بما فات .

فماذا حدث ؟

وهل من الممكن لمصر أن تعود مرة ثانية منارة للحضارة الإنسانية؟

فلنبحر معا في تاريخ الوطن علنا نجد الإجابة .

مصر السما الفزدقي وعصافير معديه

والقله ممليه ع الشباك .. منديه

والجد قاعد يقرا في الجرنال

الكاتب المصري ذاته مندمج في مقال

ومصر قدامه أكتر كلمة مقريه

قريتها من قبل ما اكتب اسمي بإديَّا

ورسمتها في الخيال على أبدع الأشكال

ونزلت أيام صبايا طفت كل مجال

زي المنادي وفؤادي يرتجف بجلال

على اسم مصر

صلاح جاهين

المشهد المصفى

عـاش المصريـون لآلاف السـنين فـي محميـة طبيعيـة إلهيـة حباهـم بهـا الرحمـن ؛ فالـوادي الأخضـر الخصب تحُـدُّهُ الصحراء الشاسـعة من الناحيتين والبحار من الشـمال والشـرق ، وكأنها بوتقة انصهر فيها الإنسان المصري مع النهر فاسـتقر وأهدى للعالـم الزراعة ، وهي الاختراع الأعظم على مر العصور واللبنة الأولى في طريق الحضارة والإنسانية ، فانبلج فجر الحضـارة من عرق أياديه السـمراء ، وأشـرق فجر الضمير مـن قلبه العامر بالإيمان والحب والخير ، فأضاء للعالـم طريق التقدم والعلم والمعرفة .

و هكـذا أصبحـت الحضارة المصريـة هي الوحيدة علـى ظهر الأرض التي خصص لها علم باسـمها ، والتي يدرس قيمتها وقيمها أطفال الأرض قاطبـة في مدارسـهم ومنـذ نعومة أظفارهم ، تـزداد قيمتها كل يـوم بتوالي الاكتشـافات ؛ فهـي تأبـى إلا أن تعطي للعالـم قطرات مـن فيضها كل يوم ، ولـم يزل البشـر يلهثون وراء أسـرارها يوما بعد يوم وما زالت مبهرة معطاءة ومشرقة ..

فأين يكمن سر الحضارة المصرية وسحرها ؟

أجاب د . زاهي حواس عن سؤال منى الشاذلي في برنامج "العاشرة مساء" عندما سألته عن العامل الأساسي في صنع الحضارة المصرية ، فقال كلمة واحدة حاسمة :

"**العدالة**" !!!

شيء غريب !! فنحن لا نسمع صباح مساء الا عن طغيان الفراعين الطواغيت وظلمهم ، والقهر الذي جادوا به على العالمين ، حتى أصبح الفرعون رمزًا منفرًا ، ولكن ها هو د . زاهي يقلب هذه الأفكار رأسا على عقب ويؤكد أن العدالة أساس حضارة الفراعين العظام !!

هل نحن ، إلى هذا الحد ، مقصرون وقاصرون عن معرفة تاريخنا وحضارتنا ؟؟

فلنبحر معا في نهر الحضارة الأم ، ولنستمع إلى ما كتبه أجدادنا وتركوه لنا وللعالم تراثا خالدا ، علنا نعرف أكثر ونقترب من الحقيقة أكثر وأكثر .

العدالة:

"إن العدالة خالدة الذكرى ، فهي تنزل مع من يقيمها إلى القبر ... واسمه لا يمحى من الأرض بل يُذكر على مر السنين بسبب العدل " .

(من قصة الفلاح الفصيح الذي عاش في القرن الثالث والعشرين ق.م).

"إذا كنت مشرفًا على جماعة من الناس ، تتولى شئونهم ، فعاملهم بالعدل حتى لا يلومك أحد ، فالعدل عظيم ثابت لا يتغير منذ وضعه الله" .

"لا تدع أحدًا يرعب الناس فأمر الله أن ينعموا بالأمان" .

" إن كنت أبا لليتيم فأنت حبيب لماعت ، وإن راعيت الفقير والمريض فأنت حبيب لماعت ، وإن كنت لسانًا للمظلوم وأذنا صاغية لشكواه فأنت حبيب لماعت ، ولن يمزق شراع مركبك يومًا موج بحر الحياة إن كنت حبيبا لماعت" .

وماعت هي صاحبة العدل ، الممسكة بالميزان والتي نراها اليوم على واجهة دور القضاء في كل دول العالم ، ولقد كان عمل الفرعون الأساسي هو إرساء العدل والنظام والحق في أرض مصر .

(ملحوظة : ترجم البعض كلمة رب أو ربة على أنها المرادف لكلمة الله ، ولكنها في واقع الأمر مرادف لكلمة صاحب أو صاحبة ، مثلما نقول اليوم "ربة البيت" أو " أرباب المعاشات" أو "ربة الصون والعفاف") .

الفضيلة والخلق:

"إن فضيلة الرجل هي أثره ، ولكن الرجل السيئ منسي ".

(من شاهد قبر مصري عاش في القرن الثاني والعشرين ق .م).

"إن فضائل الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الظالم " (أي من قربان الرجل الظالم) .

(نصيحة موجهة للأمير " ميروكارع" من والده الفرعون . عاش في القرن الثالث والعشرين ق .م) .

"الله يحب الذي يدخل السرور على الرجل المتواضع أكثر من الذي يحترم الرجل العظيم " .

" لا تضحكن من رجل أعمى ، ولا تهزأن بقزم ، ولا تؤذين مقعدا ، ولا تستهزئن برجل يكون في يدي الله " .

" لا تدعن قلبك يجري وراء الثروة .

و لا تجهدن نفسك في طلب المزيد عندما تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك .

و إذا جاءت إليك الثروة عن طريق السرقة .

فإنها لا تمكث عندك زمن الليل .

فحينما ينبلج الصباح فإنها لم تكن في بيتك بعد .

لأنها قد تكون صنعت لنفسها أجنحة و صعدت للسماء" .

"إذا سمعت خيرًا أو شرًّا .

فاتركه وراءك غير مسموع .

وضع الكلام الحسن على لسانك .

وأما الكلام السيئ فأبقه مخفيًّا داخلك" .

"لا تستخدم الحبر لتكتب شرًّا أو ضرًّا... فإن منقاري.. ، منقار أبيس، هو إصبع الكاتب ... فإذا رأى من يضر الإنسان بإصبعه ... لن يحفظ له ابنه ما كتب" .

"إنني أفعل ما أقول .... وأخطط قبل أن أتكلم .... إنني أخطط للمعركة من أجل النجاح .... ولكي يصعب على المعتدي أن ينال مني ... إنني أفكر في كل شيء .... في الزوجات والأطفال الذين تركناهم

ونحـن في سـاحة المعركـة ... إنني أحـارب ولكن برفق ورحمـة ... إنني أعتدي فقط .. عندما يُعتدى علي .... وأسالم من يطلب مني السلام " .

(من أقوال جندي مصري)

المرأة والأسرة :

"لقد سوَّى الإِلهُ بينَ الرجل والمرأة في مسئولية كل منهما تجاه الآخر ونحو المجتمع" .

"إذا علَّمت رجـلاً فإنك علمت فـردًا ، وإذا علَّمت امرأة فإنك علَّمت أسرة" .

"الأم هبة الإله

ضاعف لها العطاء

فقد أعطتك كل حنانها

ضاعف لها الغذاء ؛ فقد غذتك من عصارة جسدها

احملها في شيخوختها ؛ فقد حملتك في طفولتك

اذكرها دائما في صلاتك ، وفي دعائك للإله الأعظم

فكلما تذكرتها تذكرتك ؛ وبذلك ترضي الإله فرضاؤه يأتي من رضائها عنك" .

"امرأة بلا ثقافة كسـفينة بغير مرشـد تسير على غير هدى كما تسوقها الريح أو يجرفها التيار" .

"الزوجـان وتـران مشـدودان علـى قيثـارة واحـدة ، يجـب أن يكونا منسجمين حتى لا يتطرق النشاز إلى لحن حياتهما" .

ينصح بتاح محب ، أحد حكماء الدولة القديمة ووزير ملك من ملوك الأسرة الخامسة ، ينصح الزوج ويقول :

" إذا كنت حكيمًا فاعتن ببيتك

أحبب زوجتك حبًّا نقيًّا

املأ بطنها بالطعام

وغط ظهرها بالكساء

ولا تكن فظا فالرقة تؤثر عليها أكثر من الشدة

تلك الأمور تصنع الاستقرار بالبيت

إذا صددت عنها فتلك إساءة

فافتح ذراعيك وأظهر لها حبك " .

ينصح الحكيم آني ابنه بحسن معاملة أمه ويقول:

" أنا إذا كنت أعطيت لك أمك ، فهي التي كنت لها أثناء حملها بك عبئًا ثقيلاً لم تستطع أن تضعه علي ، وبمجرد أن ولدتك وأرضعتك ثلاث سنوات دون تعب أو ملل إلى أن دخلت المدرسة ، وكان هناك من يعلمك الحروف ، كانت دوما على مقربة من معلمك بالخبز والجعة من بيتها ، والآن وأنت رجل ناضج اتخذت زوجة وأقمت بيتا ، لتكن عيناك مفتوحة على المشقة التي صاحبت ولادتك ، ولتخضع كل تصرفاتك لما فعلته أمك من أجلك حتى لا تغضب عليك وترفع يديها إلى الرب لأن الرب يسمع دعاءها" .

"لقد ربطت مشيئة الرب بيننا برباط الزواج، ولقد عرفت أنكِ اخترتني بحريتكِ ، ووافقت علي بكامل إرادتكِ ، وستكونين في بيتي قطعة مني وسوف أرعاك ......

وإذا قدر لنا أن ننفصل ، فسوف أعطيك جميع حقوقك .." .

"إذا أردت أن تعرف الصديق ... لا تسأله من أنت .... اقترب منه وامتحن قلبه .. ابحث لنفسك عن بيت صغير وزوجة تحبها من قلبك ... املأ قلبها بالفرح ...كي تكون لك حديقة ورود" .

"لو لم تساعدني فسوف يذهب الحب الذي جمعنا .... إن مسئولية البيت كبيرة ورعايته هي التي تجعله بيتًا حقيقيًا ... أريد أن يعود بيتنا عشًّا هادئًا من جديد" .

"ظهرت التجاعيد في وجهي وأصابني الكبر ..... وأصبحت كثير النسيان .. أنفي يصارع مع الأنفاس نسمات الهواء، وعظامي لا تكف عن إخباري بأن الألم يسكن في قيامي وقعودي ... وأنت الآن يا بني عكازي، أعطني أذنك وحاول أن تسمعني " .

"كم أحبك يا "حتحورتي " وكم أتوق لرؤيتك . إنك يا حبيبتي كنسمة الربيع .... صوتك كالقيثارة ... وعطرك مثل زهور النيل ... سنبقى دائما معا لنجدف في مركب الحياة ... وسوف تحمينا السماء .. وتمنحنا الفرحة .

فتجيبه الحبيبة قائلة:

سأكون دائما في انتظارك ... كالبحيرة التي تزينها زهور اللوتس .. وهي تنتظر البط العائد من رحلته ... سأكون في انتظارك .... في شموخ

عباد الشمس ... وفي عيدان القمح الذهبية ... وهي تستعد لاستقبال طيور السمان" .

"إنك يا حبيبتي ..كنسمة الربيع .. صوتك مثل قيثارة .. وعطرك هو زهر اللوتس .. سنبقى معا دائما ... لنجدف معا في مركب الحياة ... وسوف تحمينا ... وترعانا شمس السماء" .

"خذي يا حبيبتي زهرة اللوتس .. وانتعشي برائحتها .. وتظللي بظل هذه الأشجار .. وليبقنا الرب معًا دائمًا" .

الإيمان :

"لا تنم في الليل وأنت خائف من الغد ؛ فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد".

"وما فائدة الملابس الجميلة إذا كان الإنسان باغيًا أمام الله"

"إليك يا اسم الخلود ... وسيد الملوك ... يا من نراه في أشياء الوجود ....يا خضرة الصحراء ... وفجر عتمة القلوب ... يا من تتمشى بين النجوم ...فتزيدها نورًا ولمعانًا ... روحك النبيلة ترفرف ... هناك في أبيدوس .... حيث يوجد عرش الحياة.....نحاول أن نحبها مثلك ...كما أحببت نهرها ... وطيور سماواتها .... وورودها وأشجارها ...وكل ما ينطق بالحياة" .

"كلٌّ يذهب ...الفقير والنبيل ..ومن ادعى الألوهية ... ماذا بقي من القصور بعد أن غابت الحياة؟ هل عاد إلينا أحد منهم؟ نعرف أيضًا أن أحدا لن يعود فلنقل هذا جميل .... ولنسعد به ولنحيا بإحساس نابع من القلب ...ونندهش دائما ...فربما نلتقط السعادة" .

اعترافات البريء يوم الحساب:

"لم أسرق ... لم أقتل ... لم أكذب .... لم أجعل أحدا جائعًا ... لم أتسبب في بكاء أحد .... لم ألوث ماء النيل" .

"يا إلهـي احفظ اسـمي في خرطوش ...فالاسـم هو الإنسان .. ومن لا يملك اسمًا ... لا يملك الحياة" .

" أنت تشرق وتشرق ، أنت تسطع وتسطع

ولقد أشرقت كملك للآلهة ، أنت رب السماء ورب الأرض

خالق الأعالي وما هو تحت

الإله الفريد الذي خرج مع بداية الخلق ، خلق البلاد والشعوب

الذي خلق المحيط الأزلي وأجرى النيل وأوجد الفيضان

والذي يصون الحياة التي به ، الذي رفع الجبال وخلق البشر والأنعام

السماء والأرض تمجدان وجهك (إشراقك)

وماعت تحتضنك دائما

... أنت الواحد الأحد

يمدحون باسمك ويقسمون بك

وجوههم تتجه صوبك

تسمع بأذنيك وترى الملايين

لا وجود للآسيويين هنا الذين تتجنبهم عندما يتعرف قلبك عليهم

النهار يكتمل باسمك

والمسافات بعيدة ملايين الأميال"

ولتكتمل الصورة يصبح من المهم ذكر رأي أعلامنا من المصريين من رواد عصر النهضة المصرية الحديثة ، وعلماء المصريات وأيضا من المفكرين المحدثين في ماهية الديانة المصرية .

يقول دونالد مالكوم ريد في كتاب" فراعنة من " : ونهج بروجش نهج ماريت والطهطاوي في محاولة جعل العقيدة المصرية القديمة تبدو في صورة مقبولة أمام المسلمين . وعندما اكتشف أن بعض صفات آمون إله طيبة وبتاح إله منف ، وغيرهما من المعبودات تتفق تماما مع التسعة والتسعين اسمًا من أسماء الله الحسنى في الإسلام ، أكد أن قدماء المصريين عبدوا إلهًا واحدًا ، وأن صفات الرب الواحد تكمن تحت سطح التعددية التي تبدو في الديانة المصرية القديمة" .

" وأورد الطهطاوي نصوص بعض نقوش أهرام سقارة مستنتجًا منها أن قدماء المصريين كانوا من الصابئة " .

ويقول أحمد بك كمال ، الأمين المساعد للمتحف المصري ، في كتابه الرائع "بغية الطالبين" الصادر منذ 100 عام ما نصه :

إلى الآن لم يمكن الاستدلال على مبدأ الديانة المصرية ولا عن كيفية وجودها بمصر ، ولا نعلم هل هي أصلية فيها أو جلبت إليها عند وفود المصريين من آسيا ، وغاية ما سلم به العقل أنها أخذت عن ديانة أقدم منها عهدًا ألا وهي ديانة سيدنا نوح – عليه السلام – الناطق بها كتاب الله – عز وجل – بقوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ (الشورى : 13) .

ولاشك أن سلف أهل مصر كانوا يعتقدون وجود إله واحد يَرى ولا يُرى ، ومعبود صمدي قديم أزلي لا أول له ولا آخر . وأنهم كانوا يقدسون بإجلال نعمه الجليلة ، ويتقربون إليه بعمل الحسنات واجتناب السيئات، وبمعرفته ، وأداء شعائر عبادته . وأنهم ارتقوا في مادة معنى الألوهية إلى درجة قصوى وقد ورد في آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية الله – تعالى – وقدرته وأفعاله وصفاته منها :

" كل شيء خلقه الله العظيم بنفسه"

" خالق الكائنات والأشياء"

" الخالق لكل مخلوق الذي لم يخلق وهو فاطر السماء والأرض"

" الموجود لكل ما يكون أما ما لم يكن فهو في مكنون علمه"

" الله معبود باسمه الأزلي خالق الأرواح في الأشباح "

" تمضي الدهور وهو باق دائمًا"

" ذو الأزلية الذي يمضي دهورًا لا تحصى وهو على حالة وجوده"

" ذو الأزلية الذي لا حد له "

" لا يمسك بالذراع ولا يقبض باليد"

" لا تدركه الأبصار"

" سميع لمن يتضرع إليه"

" الذي يكون والذي لا يكون ، مختص به"

" الواحد الذي لا شريك له"

و قد وافق على اعتقاد المصريين بوحدانية الله كثير من علماء اللغة المصرية القديمة ومن ضمنهم "بييره" القائل :

"إن الديانة المصرية التي تغيب علينا حقيقتها لكثرة دخول المعبودات فيها هي الاعتقاد بوحدانية الله – عز وجل – كما يثبت ذلك لدى عموم العالم واتضح لنا جليًّا من النصوص الأثرية ، أما تعدد المعبودات التي قالت بها الآثار فليست إلا أمرًا ظاهريًّا قصد به بيان مظاهر الذات العلية ليس إلا" .

ومريت القائل:

" إن قدماء المصريين كانوا يقرون بوحدانية الله ، وإنهم وصفوه بما يليق به من الصفات العديدة والأسماء الكثيرة" .

ولقد أكد الأستاذ عزت السعدني هذه الآراء في أكثر من مقال له في جريدة الأهرام بعنوان :

"نحن أول الموحدين" ، كما أكدها د . نديم السيار في أكثر من كتاب؛ منها "المصريون أول الموحدين" ، ود . سيد كريم في الكثير من أبحاثه القيمة .

حب المعرفة والحكمة :

"أيها الكاتب كم تبدو وكأنك تبصر ما لا يراه أحد ... الناس يأتون إلى الدنيا ويرحلون .... وتبقى أنت في لفائف البردي ... إن كتابة البردية أفضل من بناء ضخم ...يستمتع الناس بسطورك ... ويصبح كل أطفال الأرض أبناءك ..فأنت حبيب وابن للشمس ... منذ أن أصبح القلم ابنًا لك......" .

"ليتك يا تحوت تأخذني ... إلى مدينتك في الأشمونين .... و تدخلني معبد الصدق ..... وتحرس فمي عند الكلام ... فلا ينطق لساني .... إلا بالحق ... إنني للعلم عطشان .... كالباحث عن الماء في الصحراء" .

"علم قلبك يا بني ...حب الكتاب ... فمكانة الكاتب ليس لها مثيل.... سيكبر مع الأيام ... وتزداد عظمته ... وسوف يكون سفيرًا لبلاده".

"أعطني أذنك ... وحاول أن تسمعني ..... فالجاهل الحقيقي من يجهل نعمة الاستماع .... ولا يعرف نوع الكلام ... هؤلاء يموتون وهم أحياء ... أنا يا بني أريد لك المعرفة ... فهي روح الحياة ... وصناعة الكلام .. أصعب من أي حرفة أخرى ... احترس منها ومن الأيام ... وإن أصبحت عظيمًا لا تنس يومًا حالك في ماضي الزمان" .

"أنت يا كاتب بيت الحياة ..إنك تعلم الكثير ..... ولا يوجد شيء نسألك عنه ولا تعرف له إجابة" .

الانصهار في أرض مصر :

"إلى حقول السلام ..... حقول السنابل الغالية .....أنتِ أرضي وأنت جنتي وفي قلبك بيتي ....

من خيراتك نحيا .. وبدونك لا توجد حياة" .

"أعطني ردائي وتاجي وأيضا عطري وبقية ثيابي سأكون في أجمل صورة كالعظيمة إيزيس .... إنني أذهب إلى الموت بإرادتي فإما أن تأخذ مصر نصيبها من العالم أو يكون الموت نصيبي .... ولتعطني يا مصر .... في موتي السلام الذي حرمت منه في الدنيا " .

"هاهو الحزن يتمشى في البلاد والفقر عاد في كل مكان ، ومن كان لصا أصبح ذا ثروة عظيمة ، الغربة عششت في قلوب المصريين بعد ما ترك الفلاح الأرض ، وهجرت العصافير الأغصان ماذا جرى لأبناء بناة الأهرام، هل يصدق أحد أن من بنى الهرم يبحث اليوم عن لقمة عيش؟!".

"هل أنا ثور هائم ... بين قطيع خراف؟ هل سيحبونني ..... وأنا رجل الدلتا ...؟ هل سيسمحون لي أن أكبر ... أن أسمو .. وأنا الغريب المحكوم عليه أن يكون دائما الأقل شأنا ؟ طريد أنا .. يسكن قصرًا عظيمًا ... تسكنه ذكريات أعظم ... ويزداد حنينه يوما بعد يوم إلى سيدة العالم (مصر) ... يريد أن يعرف حال أطفالها ويسمع صيحاتهم من جديد لتعود - مرة أخرى- إليه الحياة" .

"سلام عليك يا من حافظ على حدود البلاد ، وزرع الأرض السوداء بين ضلوعه. يا من يرهب الأعداء، ويقاوم الظلم والفساد أمنت لنا الحياة، جندك في فرحة ، وأطفالك في فرحة ، وشيوخك عاد لهم الشباب ، لقد منحت مصر السلام وجعلت حناجرنا تتنفس" .

"أيها النيل العظيم ... يا حبيب الأرض "جب" يا من تروي سواد الطين ... فيصير أخضر ... أيا صانع القمح والشعير ... ورب السمك والطيور يا حبيب الأزهار .. الأطفال يصيحون فرحة بك ... ويضحكون مع "سوبك" في نشوة : يا من يحفظ للأرض الحياة ... فيحفظ أهل مصر أحياء " .

* * *

يبدو لي أن سحر الحضارة المصرية يظهر الآن أكثر وضوحًا ، فهي حضارة ينصهر فيها العدل ، والمعرفة ، والإيمان ، والفضائل الإنسانية ، وحقوق المرأة والأسرة في بوتقة الوطن الجميل ... مصر .

فنحن لا نكاد نتبين الفرق بين ما هو إنساني وما هو إيماني ، بين ما يرتبط بالوطن وما يرتبط بالفضائل والأخلاق ، بين ما هو مرتبط بالمرأة وما هو مرتبط بالعدالة الاجتماعية .

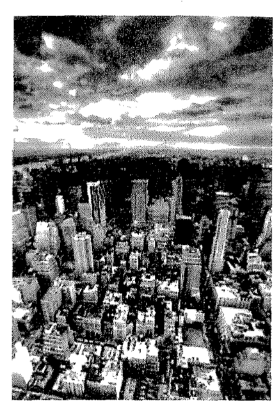
فالهوية واضحة وضوح الشمس وانتماء المصري لوطنه جليٌّ بلا مواربة، وهكذا حسن الاختيار؛ فارتفع البنيان لعنان السماء يرجو رحمة من الله، وفضلًا فانتشر الخير والحق والجمال على ربوع مصر حتى فاض نورها على العالم أجمع .

ولكن ماذا حدث ؟؟

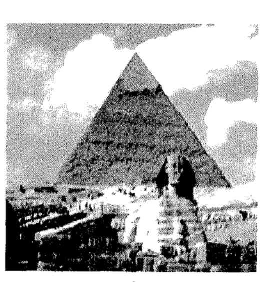
ترتكز الحضارة على البحث العلمي والفني التشكيلي بالدرجة الأولى ،فالجانب العلمي يتمثل في الإبتكارات التكنولوجيا وعلم الإجتماع ...أما الجانب الفني التشكيلي فهو يتمثل في الفنون المعمارية والمنحوتات وبعض الفنون التي تساهم في الرقي . فلو ركزنا بحثنا على أكبر الحضارات في العالم مثل الحضارة الرومانية سنجد أنها كانت تمتلك علماء وفنانون عظماء . فالفن والعلم هما عنصران متكاملان يقودان أي حضارة .

وفي اللغة العربية هي كلمة مشتقة من الفعل حضر، ويقال الحضارة هي تشييد القرى والأرياف والمنازل المسكونة، فهي خلاف البدو والبداوة والبادية، وتستخدم اللفظة في الدلالة على المجتمع المعقد الذي يعيش أكثر أفراده في المدن ويمارسون الزراعة على خلاف المجتمعات البدوية ذات البنية القبلية التي تتنقل بطبيعتها وتعتاش بأساليب لا تربطها ببقعة جغرافية محددة، كالصيد مثلاً، ويعتبر المجتمع الصناعي الحديث شكلاً من اشكال الحضارة.

تعرف الحضارة على أنها الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي ومقدار التقدم العلمي والتقني الذي تمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ. إن الحضارة بمفهوم شامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم.



وسط مدينة نيويورك أحد أبرز معالم الحضارة الحديثة



أهرامات الجيزة أحد معالم حضارة مصر القديمة

– من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة – صفحة الحضارة

نهايته مصر اللي كانت أصبحت وخلاص

تمثال بديع انقلب وأنفه في الطين غاص

وناس من البدو شدوا عليه حبال الخيش

والقرص رع العظيم بقى صاج خبيز للعيش

وساق محارب قديم مبتورة ف ابو قرقاص

ما تعرف اللي بترها سيف واللا رصاص

والا الخراب اللي صاب عقل البلد بالطيش

على اسم مصر

صلاح جاهين

من الفلاح الفصيح إلى الفلاح الخرسيس

مـاذا حدث ؟ وكيف يمكـن لمثل هذه الحضارة العظمـى أن تتهاوى ؟ محاولـه الإجابـة مضنية ومؤلمة ، فكلما رجعـت للتاريخ تصدمك الوقائع وتدميـك الأحداث ويفزعك تتابع الظلم والقهر ويفزعك أكثر مدى جهلنا كمصرييـن محدثيـن بمـا حـدث لحضارتنـا وأجدادنـا العظـام وأهلنا من الفلاحين البسـطاء ، وإذا كان التسـامح من شـيم المتحضرين المصريين ، فإن التجهيل بما حدث يعد جريمة في حق الوطن والمستقبل .

وسأحاول في الصفحات القليلة القادمة أن أعرض لقطات عن ما حدث لمصر والمصريين .

2996 عامًا من الاحتلال:

من ينظر إلى جدول (1) الذي أورده جمال حمدان في كتاب "شخصية مصـر" والذي رصد فيه للمحتلين وعدد سـنوات احتلالهم لمصر ويجمع عدد السنوات سوف يصيبه الرقم بالذهول!!

فلقـد تحولـت عبقرية المكان إلـى نقمة ، وتحول نهـر الخير الذي كان يفيض من بين يدي الفلاح المصري وتنعم به الدولة المصرية ، منذ ولادتها على يد الملك مينا ، إلى كارثة مروعة حلت بالوطن المصري وحضارته .

فمع مرور الزمن لم تصبح الصحاري عائقا أمام الغازين من الشـرق أو الغـرب ، كمـا لم يعد البحر عائقا لغزاة الشـمال ، والغنيمة عظيمة ، فتوالى الغزاة كالسيل يسلمون مصر لبعضهم بعضا ، من طاغ إلى مستبد ومن محتل إلى مستعمر حتى وصل مجموع سنوات الاحتلال إلى 2996 عامًا !!!

انحسر فيها الإنسان المصري وتوارى خلف دور واحد فقط "الفلاح".

حكم الرعـــاة			الاستعمار البحـــري		
القوة	التاريخ	المدة بالسنة	القوة	التاريخ	المدة بالسنة
الهكسوس	حول القرن 18 ق.م	150	–	–	–
الليبيون	الأسرة 22 – 25	200	–	–	–
الأثيوبيون	الأسرة 25	100	–	–	–
الأشوريون	الأسرة 25	150	–	–	–
الفرس	الأسرة 27	–	–	–	–
–	–	–	الإغريق	323 ق.م – 30م	353
–	–	–	روما	30 ق.م – 331م	361
–	–	–	بيزنطة	331 ق.م – 640م	971
العصر الإسلامي	641 – 1917	1276	–	–	–
–	–	–	فرنسا	1799 – 1801	3
–	–	–	بريطانيا	1882 – 1956	74

اختفى الملك المصري والوزراء المصريون وحكام الأقاليم المصريون والقضاة المصريون، وجاء آخرون من شتات الأرض لا هَمَّ لهم إلا استنزاف خيرات مصر؛ لتذهب في خزائنهم وإلى أوطانهم الأصلية، حتى الجيش المصري اختفى، فلم يعد للمصري حق الدفاع عن وطنه.

2996 عامًا والوطن مغتصب ومملوك لهذا أو لذاك، الأسماء لا تهم فالكل غزاة والاحتلال واحد وقتل الهوية الوطنية مستمر ومتصل.

وبالطبع، فإن أي احتلال يزخر بسلبيات جمة على الشعوب المحتلة، فما بالك بهذا التتابع المستمر والسرمدي والمتنوع الأشكال والأجناس.

ولعل أهم المشكلات التي تصيب الشعوب تحت الاحتلال، والتي قد يكون للمصريين نصيب منها، هي:

1ـ التشبه بالمنتصر:

وهي حالة تحدث للشعوب المنهزمة حيث يصبح المنتصر هو القدوة والمثل الأعلى، وكما يقول ابن خلدون فإن المهزوم يحاول تقليد المنتصر لأنه يعتقد في امتلاكه لمفاتيح النصر.

وها نحن نتأرجح كالبندول بين عقدة الخواجة وعقدة الكفيل.

2ـ عشق الخاطفين !!:

وهي حالة يقع فيها المخطوف في "حب" من خطفوه !!

حيث تسيطر عليه غريزة حب البقاء فينتابه إحساس إيجابي نحو مختطفيه الذين أبقوه على قيد الحياة ولم يقتلوه بعد، ثم يتحول هذا الإحساس إلى إحساس بالعرفان والحب أو العشق بعد مدة من الوقت.

وتذكر موسوعة ويكيبيديا تفسيرًا لحدوث مثل هذه الحالة:

" الإناث اللاتي تم اختطافهن واستمروا في مقاومة الخاطفين ولم يذعنَّ لهم تم قتلهن أو سجنهن وبالتالي لم ينجبنَ أطفالًا، بينما الإناث الذين تجاوبن مع الخاطفين وخضعن لهم فقد بقين على قيد الحياة، وبالتالي أنجبن أطفالًا يحملون جينات السلبية والخضوع للخاطفين. بمرور العقود تتكون أجيال أكثر قابلية للخضوع بل والتضامن مع الخاطفين".

3ـ تبني هوية جديدة:

مع طول الاحتلال تصبح الهوية الأصلية مؤلمة وخانقة بل مميتة في حال التمسك بها.

فالمحتل يكلمك بلغته وعليك أن تفهم وترد، ويحكمك بقوانينه وعليك أن تمتثل لها، ويتعامل معك بقيمه وأخلاقياته وعليك أن تقبلها بل وتتبناها؛ ففيها خلاصك وسلامتك، وقد تتأصل هذه القيم وتتجذر في المجتمع حتى يصعب كشفها والرجوع عنها.

تحضرني هنا قصة دالة قرأتها منذ أكثر من عشرين عامًا وتحكي عن محاولة بعض العلماء لدراسة سلوك المجتمعات. فلقد أتوا بمجموعة من القرود، وضعوها في قفص، بداخل القفص منضدة وفوق المنضدة علقوا سباطة موز. وكلما حاول أحد القرود الصعود فوق المنضدة للحصول على الموز يتم رش المجموعة كلها بمدفع من المياه الباردة، فيتراجع عن الصعود للموز، مع تكرار العملية يتوقف القرود عن محاولات الصعود تمامًا. عندها يتم إدخال قرد جديد، وبالطبع يحاول القرد الجديد والذي

لـم يعاقب بالمياه من قبل ، الصعود على المنضـدة للحصول على الموز ، عندهـا قـام القرود التي تمـت معاقبتها بالمياه بضرب القـرد الجديد ومنعه مـن الحصـول على الموز !! فيدخلـون قردًا ثانيًا ، فيكـرر محاولة الصعود للمنضدة ، فيتم ضربه وعقابه ، ويشـارك في الضرب زميله الأول !! وحتى عندمـا يسـحب العلماء كل القـرود التي تمـت معاقبتها بالمياه فـإن القردة الموجوديـن والذيـن تم ضربهـم من قبل القـرود الأخرى ، يستمرون في معاقبـة كل قرد جديد تسـول له نفسـه الصعود على المنضـدة !! والخروج على ثوابت المجتمع !!!

وهكـذا ، فَتَحْتَ حكم القهر قد يتبنى المجتمع قيما وأفكارا ويرسـخها كثوابـت مجتمعية مع أنها أبعد ما تكون عـن قيمه الأصيلة ، وقد تظل تلك القيـم التـي تـم تبنيها تحت القهر ، سـائدة حتـى ولو كانت سـلبية ومدمرة للمجتمـع ، بل ويبطش المجتمع بمن يحاول إزالة الغشـاوة من على عينيه وتغييرها .

و2996 عامًا من القهر:

"إن الخصب قد قال :
أنا لاحق بمصر ..
فقال الذل :
.. وأنا معك"

....

"ورحلت إلى الريف ورأيت كيف كان يسلط الإنجليز علينا الموظفين المصريين!! مـن مأموريـن ومديريـن وحكمداريـين وشـرطة؛ لخطـف

محصولاتنا . وكانت الجمال والحمير بل الرجال ، يخطفون أيضا !!
كما لو كانوا في قرية زنجية على خط الاستواء ، قد كبسها النخاسون لخطف سكانها وبيعهم في سوق الرقيق ، وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله، ويسيرون على هذا الحال صفا إلى أن يبلغوا المركز ، فيحبسون في غرفة المتهمين ، ثم يرحلون إلى فلسطين .... وفي تلك السنوات السود ، أثري كثير من العمد ثراءً فاحشًا ، فقد فرضوا الضرائب على جميع الشباب ، من سن العشرين إلى الخمسين ، كل على مقدار ما يملك .. حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم إلى فلسطين ... وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ، بخدمة الحملة الإنجليزية في فلسطين ، وكانوا يعدون بعشرات الألوف ، مات أكثرهم وعمي بعضهم" .

هذه نقطة من بحر القهر الذي عاناه وعاش فيه المصريون على مدى 2996 عاما من الاحتلال كما سجلها سلامة موسى ، وإذا كان جمال حمدان قد قسم الاحتلال إلى نوعين "حكم الرعاة" و"الاستعمار البحري" فالنتيجة واحدة ، قهر وظلم وجور وعسف استمر طوال 2996 عامًا على أرض مصر تبدل خلالها الغزاة من أول الهكسوس وانت طالع .

ونقطة أخرى:

"عندما دخل العرب مصر وجدوا أهلها وقد سادت بينهم السلبية والريبة والتوجس من الغرباء بعد أن عانوا لمئات السنين ، قهر وظلم الفرس والإغريق والبطالسة والرومان والبيزنطيين .. الغريب أن العرب أيضا حرصوا على استمرار الأوضاع كما كانت عليه وتأصيل الخضوع مع حرمان أهل مصر من المشاركة في الحكم أو الدفاع عن بلدهم ليتحولوا

بمضـي الزمـن إلى أقنـان إن لـم يكونوا عبيـدا يعملون فـي الأرض للوفاء بالخـراج والجزيـة الفردية والجماعية لا فرق في ذلك بين من أسـلم منهم ومن لم يسلم" .

فوق نقطة أخرى:

"المصـري كان عليه أن يدفع سـواء أكانـت الأيام أيام رخاء أم كانت أيـام قحط أو طاعـون أو حروب وفي هـذه الأيام كانت المـزارع والبيوت والأجـران تصبح عرضة لنهـب قبائل العرب المتحلقة حولها ، أما النسـاء والأطفال فكانوا عرضة للسبي والخطف يباعون في سوق النخاسة" .

وليتجمع سيل القهر:

"الحاكم بأمر الله هو نموذج الخليفة المخبول صار يفعل أشياء لا تقع إلا من المجانين الذين في عقلهم خلل؛ فمن ذلك منع النسـاء من الخروج إلـى الطرقـات ، ومن التطلع مـن الطاقات ، والطلوع إلى الأسـطح ، ومنع الخفافيـن مـن عمـل الأخفاف لهن ، ومنع سـائر النسـاء مـن الدخول إلى الحمامات فمر يومًا بحمام فسـمع ضجيج النساء فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام فسـدوه عليهن من الوقت والسـاعة وهو واقـف عليه فأقمن داخل الحمام حتى متن به !!!

ومنع الزبيب وأمر بحرق الكروم ومنع بيع العسل الأسود!!

وكذلك منع زراعة الملوخية لأن عائشـة كانت تميل إليها ، والقرع لأن أبا بكر كان يميل إليه!!

ثـم نهى عن أكل الرطب وزرع الترمس ثم أمر بقتل الكلاب فقتل منهم نحو ثلاثين ألف كلب !!!

ثم أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل وجعل الليل مقام النهار في جميع أحوال الناس !!

.. أمر اليهود بأن يعملوا في أعناقهم إذا خرجوا إلى الأسواق قرامى خشب وزن كل قرمة خمسة أرطال ، وأمر النصارى بأن يضعوا في أعناقهم صلبانا من الحديد قدر كل صليب ذراع !!

.. ولقد كان يسير في الأسواق ومعه عبد أسود طويل عريض فإذا وجد أحدا من السوقة غش في بضاعته أمر ذلك العبد مسعود بأن يفعل به الفاحشة العظمى وهي اللواط !! فيفعل به على دكانه والناس ينظرون إليه حتى يفرغ منه والحاكم واقف على رأسه !!!

.. الحاكم في النهاية ادعى الربوبية من دون الله – تعالى – فكان إذا مر في الطرقات يسجدون له ويقولون " يا محيي يا مميت " ومن لم يفعل ذلك يضرب عنقه .. وفي النهاية قتل في نصف شوال سنه 411 بعد 25 سنة حكمًا" .

هكذا حكى لنا ابن إياس في بدائع الزهور ، وذكر محمد حسين يونس في كتاب "قراءة حديثة في كتاب قديم" .

حتى حافة الموت

و يصف بهاء طاهر فترة حكم الخلافة العثمانية في مصر في كتابه "أولاد رفاعة" فيقول:

"وفي ظل هذا الحكم المهلك ، المستند إلى مرجعية دينية زائفة يتبرأ منها إسلامنا الحنيف ، "عم الخراب إقليم مصر" على قول الجبرتي

المؤرخ المعاصر لهذه الحقبة المظلمة . وكاد المصريون يندثرون فعلًا لا مجازًا بسبب المجاعات المتكررة والمجازر والأوبئة ، وبارت الأرض الزراعية ؛ بسبب إهمال الحكام لأعمال الري والصرف ، ولهروب الفلاحين من أرضهم ، فرارًا من جُباة الضرائب الفاحشة والمتكررة . وانتشر فيما بقي من السكان على قيد الحياة (وهم قليل قياسًا على أي عصر في تاريخنا) الجهل الشامل والخرافة والشعوذة" .

تجريف العقل المصري

وبعد أن كانت مصر تحوي أعرق جامعة في التاريخ ، وبعد تاريخ مجيد من توقير الكاتب والكتابة انقض عليها الغوغاء وبدؤوا في تجريف عقل الإنسان المصري كما رصد الأستاذ أنيس منصور في كتاب "الذين هبطوا من السماء" فقال :

في سنة 48 قبل الميلاد أحرق يوليوس قيصر مكتبة الإسكندرية بكل ما فيها من مخطوطات نادرة على الورق وعلى الجلد وعلى الخشب (700 ألف مخطوط) .

وفي السنة الأولى الميلادية أحرق الإمبراطور أغسطس كل الكتب التي تتحدث عن النبوءات وكيف تكون نهاية العالم ، وقد بلغ عددها ألفي كتاب منقولة من الهند والتبت ومصر الفرعونية .

وفي سنة 490 أحرقت مكتبة الإسكندرية للمرة الثانية .

وفي سنة 641 أحرقت مكتبة الإسكندرية للمرة الثالثة .

أما المأساة الحقيقية فكانت عندما هبط مصر الأب سيكار في القرن الثامن عشر .. وكان مدفوعًا بروح متعصبة مجنونة . وراح يرتاد مصر

من أولهـا لآخرها .. ويجمع المخطوطات النادرة ويشـتريها من الناس ثم يحرقها دون أن يعرف منها كلمة واحدة!!!

ونرجع مرة أخرى إلى موسوعة ويكيبيديا لعلنا نتعرف أكثر على قيمة ما فقدته مصر في مكتبة الإسكندرية ولنعلم أيضا ما فعله المحتل بنا :

"ترجع شـهرة مكتبة الإسـكندرية القديمة (ببلتيكا دي لي إكسندرينا)؛ لأنهـا أقدم مكتبـة حكومية عامة في العالـم القديم . وليس لأنها أول مكتبات العالـم ؛ فمكتبـات المعابد الفرعونية كانـت معروفة عند قدمـاء المصريين ولكنها كانت خاصة بالكهنة فقط ، والبطالمة أنفسـهم الذين أسسـوها كانوا يعرفون المكتبات جيدًا كما ترجع عظمتها أيضا إلى أنها حوت كتب وعلوم الحضارتيـن الفرعونية والإغريقيـة وعلومهما ، وبها حـدث المزج العلمي والالتقاء الثقافي الفكري بعلوم الشرق وعلوم الغرب، فهي نموذج للعولمة الثقافية القديمة التي أنتجت الحضارة الهلينستية ؛ حيث تزاوجت الفرعونية والهلينية . وترجع عظمتها أيضا إلى عظمة القائمين عليها حيث فرض على كل عالـم يـدرس بها أن يدع بها نسـخة من مؤلفاته ؛ ولأنهـا أيضا كانت في معقـل العلم ومعقل البـردي وأدوات الكتابة (مصر)؛ حيث جمع بها ما كان في مكتبات المعابـد المصرية وما حوت من علم أون (عاصمة العلم بمصر القديمة) وأخيرًا وليس آخرا تحرر علماؤها من تابو السياسة والدين والجنس والعِـرْقِ والتفرقـة ، فالعلم فيهـا كان من أجل البشـرية فالعالـم الزائر لها أو الدارس بها لا يسأل إلا عن علمه لا عن دينه ولا قوميته" .

وتجريف الإنسان:

و لـم يسـلـم الإنسـان المصري أيضًـا من التجريف ، وعلى حسـب نوع الاحتـلال تتغيـر الطريقـة ، ولكـن يظل الهـدف واحـدًا ، فتارة يتـم تفريغ

مصـر كلها خاصة العواصــم القديمة في الصعيد من الكهنـة والعلماء فيتم تجميعهــم في الإسـكندرية ؛ ليظل باقـي الوطن مفتقرا إلـى مفاتيح التنوير وليستفيد منهم المحتل فقط .

وتارة يتم تحريض "المؤمنين" على قتل العلماء والفلاسفة والمفكرين، يتسـاوى في هـذا اغتيـال هيباتيا الفيلسـوفة المصريـة السـكندرية التي تم قتلها على أيدي مسـيحيين متعصبين عـام 415 وبين محاولة اغتيال نجيب محفـوظ التي تمت بعد مصرع هيباتيا ب 1580 عامًا عندما غرس السـكين في رقبته مسـلم متعصب عام 1995 والغريب العجيب أننا بعد 1580 سـنة ما زلنا ندور في الدائرة المفرغة نفسها من الأفكار القاتلة وبالطريقة نفسها، فكل ما يلزم هو إشـارة إلى هيباتيا الكافـرة أو نجيب محفوظ الخارج على الدين ، فينتفض الأتباع الغيورون ويقومون بالتنفيذ!!! .

أمـا السـلطان العثماني سـليم الأول فقد ابتكر وأبـدع وجاب م الآخر، فلقـد أمـر - بمرسـوم عـال - بجمع كل أصحـاب الحرف مـن المصريين وشحنهم في مركب إلى عاصمة الخلافة في إسطنبول !!! حتى يقال إن 50 حرفة قد محيت من الوجود في بر مصر ، وألف مبروك للأسـتانة !! وعلى مصر الخراب .

وقد أشاد الشيخ مصطفى العروسي –
شيخ الأزهر – ببراعة الطهطاوي في الفنون
التاريخية ، ولكن الشيخ محمد الدمنهوري
– أحد علماء الأزهر – امتدح الكتاب
لاحتوائه على أمثلة لفضلاء الرجال الذين
خدموا الوطن منذ آلاف السنين .
وذهب أحمد خيري – السكرتير الخاص
للخديو – إلى أن معرفة الأوربيين
للهيروغليفية جعلت بالإمكان أن يتخلص
المرء – غير ملوم – من المصادر العربية
المليئة بالإسرائيليات!!!! .

دونالد مالكولم ريد
في تعليق بعض المعاصرين على كتب
رفاعة الطهطاوي
التي تتناول الحضارة المصرية
"فراعنة من"

من رفاعة الطهطاوي إلى زكي جمعة

وقف الزعيم بهجت الأباصيري أمام مدرٍّسته الحسناء وهو يتصنع البكاء والولولة على العلم والتعليم وقال قولته الشهيرة "فينك يا طهطاوي، رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وزكي جمعة ، مين زكي جمعة ده؟ !!!!" ..... وضجت الصالة بالضحك معلنة أفول عصر رفاعة وأبنائه من المفكرين العظماء وبداية عصر زكي جمعة وأبنائه !! مين زكي جمعة ده ؟!

يبدو لي الآن أن زكي جمعة هو الأب الروحي للمدعين الجدد والقدامى الذين قاموا بدفعنا بعيدًا عن سكة السلامة والذين لا يرجون لمصر إلا الدخول في سكة اللي يروح ما يرجعش ، أدعياء شعارهم "طز في مصر" ، وسعادتهم الكبرى لن تكتمل إلا في تركيع هذا الوطن حتى يكون صغيرا عنينا يتقافز حوله الصغار وهو متهالك مريض ، مشدود من أذنيه وعينيه إلى معارك وهمية لا طائل منها إلا ضياع الجهد والطاقة .

وسواء أكانت هذه العبارة التي قالها الزعيم عادل إمام ، من فيض ارتجاله الشخصي ، أم كانت مكتوبة في نص الأستاذ علي سالم ، فإنها قد

استشـفت الأحوال واستشرفت المستقبل وقذفته في وجوهنا واضحًا جليًّا قميئًا ، ولكن للأسف الشديد عميت الأبصار والبصائر ولـم نفهم الرسالة ، أخذنا الضحك على أنفسنا من أنفسنا ، وأخذنا التفسير السطحي لما قيل ، وأخذنا زكي جمعة وأتباعه إلى النفق المظلم .

والعجيب أنه النفق نفسه الذي كنا فيه قبل أن ينير رفاعة الطريق ، فيبدو أن زكي جمعة موجود في كل العصور ينخر كالسـوس في عقل المصريين حتـى يفقدوا البوصلـة الصحيحة ويكرهـوا حضارتهم ويفقـدوا انتماءهم فتفتر همتهم وتنكسر شوكتهم .

و يأخذنـا الأسـتاذ محمد عمارة فـي كتابه الرائع عـن رفاعة الطهطاوي فيقول :

"قبل عصر الطهطاوي ، وقبل قيام نظام الحكم المدني الذي شـهدته مصـر منـذ سـنة 1805 .. لـم يعرف المشـرق العربـي رابطة يتحـدث عنها النـاس ، وجامعـة بين أهله سـوى رابطة "الملـة" ، التي كانـت تعني يومئذ رابطـة الدين والعقيدة الروحية .. ولـم تكن الرابطـة "الوطنية" أو "القومية" (الجنسـية) قـد برزت بعد ، بـل إن اللغة المتداولة يومئذ لـم تكن تسـتخدم هذه المصطلحات" .

ثم يستطرد :

"ولقد استثمر العثمانيون غياب "المشاعر الوطنية" إلى أبعد الحدود، بـل كرسـوا جهودهم للحيلولـة دون ظهورهـا ؛ لأن البديل لهـا كان رابطة "الملة الإسلامية"، وعن طريقها ، وتحت ستارها ، كانوا يحكمون قبضتهم الاستبدادية على عنق الوطن العربي وثرواته ومقدراته!" .

"وحتى الثورة التي قادها علماء مصر وأعيانها في مايو 1805 ضد الوالي التركي خورشيد باشا والتي انتهت بعزله .. حتى هذه الثورة أسلم العلماء والأعيان ثمرتها إلى محمد علي باشا !! لأن الرابطة العثمانية كانت تحكم منطقهم وتفكيرهم وتحركاتهم ، ولم يفكروا في أن يتولى حكم مصر واحد من أبنائها الأصليين" !!!!

* * *

ولنقرأ ما كتبه دونالد مالكولم ريد في كتاب "فراعنة من" تحت عنوان "رؤية المسلمين لمصر القديمة قبل الطهطاوي" والمفارقة التي يوضحها بين رؤية المصريين لحضارتهم ورؤية الفرس (الإيرانيين) لحضارتهم قبل الإسلام :

"تعد فكرة الأوروبيين عن مصر القديمة قبل القرن التاسع عشر معلومة بصورة أوضح من فكرة المسلمين عنها ؛ فالكتابات العربية التقليدية تبرز العداء الإسلامي لمصر القديمة وتعتبر عبادة الأوثان وتعددية الآلهة نوعا من الجاهلية السابقة على الإسلام . ولما كانت مصر الإسلامية تختلف عن مصر القديمة عقيدة ولغة ، **فإنها لم تنتج نظيرًا لـ "الشهنامة" التي احتفى فيها الفردوسي بالتراث الفارسي وأشاد بالساسانيين وملوك الفرس الأسطوريين"** (المجوس)!! .

كما يقول مالكولم " وعقد المهندس الفرنسي إدوارد دي فيليه وهو أحد علماء الحملة الفرنسية ، مقابلة بين عظمة الماضي وتخلف الحاضر فقال:

"القريـة العربية تضم أكواخًا بائسـة ، وتتحكـم في أعظم آثار العمارة المصريـة ، ويبدو أنها قائمـة هناك لتعبر عن انتصار الجهـل والبربرية على قرون النور التي رفعت في مصر الفنون إلى الذروة" .

وفي المقابل سجل الجبرتي نشاط الأوروبيين في مجال الآثار هكذا:

"حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد ، وأحضروا قطع أحجار ، عليها نقـوش وأقـلام وتصوير ونواويـس من رخـام أبيـض ، كان بداخلها موتى بأكفانهم وأجسـامهم باقية بسـبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلا.. **وأحضروا أيضًا رأس صنم كبير!!!"** .

وإذا كنـا قـد نجـد بعـض العذر للجبرتـي في عـدم فهمه لماهيـة الآثار والحضارة المصرية وجوهر الديانة المصرية ؛ نظرا لأن الهيروغليفية كانت قد فكت شـفرتها قبل وفاته بـ 3 سـنوات فقط ، فإننا نتعجب الآن كثيرًا من استمرار الإصرار على مثل هذا التشـويه من زكي جمعة ورفاقه ، فإذا كان حكمهـم هـذا عن جهل بحضارة الوطن الذي يعيشـون فيـه فتلك مصيبة ، أمـا إذا كان عن قصد وبهدف إضعاف الانتمـاء لأرضنا ووطننا ، فالمصيبة أعظم والمصاب فادح .

للأسـف الشـديد سيسـتمر معنـا أبو الزيـك وأعوانه سـنينا طـوال ، بل وقرونًا ، يبعدوننا عن ذاتنا ، يغمون أعيننا ويغلقون عقولنا فنسـتمر في التيه ليظل جاثمًا على أنفاسنا جهولًا غشومًا حقودًا ؛ لنصحو فقط في الململمات للحظـات قبـل الموات ، نأبـى الموات والاندثـار ، لننتفـض ونعبر ونفتح سـماوات الانتصـار ، فـي ومضات لا تسـتمر لأننا ببسـاطة نعـود ثانية إلى أحضان التشرذم فنفقد إحساسنا بذاتنا وانتماءنا لمصر ، فتخيب الاختيارات ويتوه الهدف لنعود مرة أخرى لبراثن الجهل والفقر .

يا زارع البساتين

ومولف الفل ع الياسمين

إزاي تولف ع الرمال الصفر

وتهد بإديك الشداد السمر

غيط العنب والورد والرياحين

من أحمس إلى عنترة

دخل أدهم مثقلا من حمل الكتب المدرسية الجديدة فألقاها أمامي وذهب ، فجلست أنا ، في محاولة للعب دور الأب المهتم بدراسة أولاده، أتفحص كتبه واحدًا وراء الآخر ، وكانت مفاجأة أعادتني 30 عامًا إلى الوراء عندما وقعت عيني على القصة المقررة عليه هذا العام "أبو الفوارس عنترة بن شداد" من تأليف محمد فريد أبو حديد ، والحقيقة أحسست بنوع من الفرح الطفولي الذي يتواكب مع رجوع الذاكرة لأيام الطفولة والشباب، وتذكرت أيضًا وحش الشاشة فريد شوقي وهو يلعب هذا الدور فيهيم وجدًا في عبلة ويذهب في مغامرة مثيرة يغزو فيها الملك النعمان ليسلب (أي يسرق) منه ألفًا من النوق العصافير مهرًا للجميلة عبلة .

ولكن القراءة الثانية للكتاب ومقدمته قد ولدت لدى أفكارًا وأسئلة لم أستطع الإجابة عنها ، فمثلا :

ما هي القيمة الفنية لهذه الرواية حتى تستمر أكثر من 30 عاما وهي مقررة على أطفالنا؟

مـا القيـم الأخلاقيـة التي تزخـر بهـا الرواية التـي يمثلها أبـو الفوارس وشـيبوب وعبلة بل قبيلة بني عبس بأكملها والتـي نريد لأطفالنا أن يتبنوها ويتمثلـوا بهـا ؟ خاصة أن الرواية تدور أحداثها فـي الجاهلية أي قبل نزول الإسلام!!(*) .

ألـم نجد في ال 7000 سنة من تاريخ مصر بطلًا مصريًّا يصلح لأن يكون قدوة لأطفالنا ؟

ألـم يكن من الأفضل ، فنيًّا وقيميًّا ، تدريس "كفاح طيبة" (مثلًا) لنجيب محفـوظ والتي تحكـي عن البطل المصري أحمس الذي طرد الهكسـوس (البدو الرعاة) من مصر ؟ أم أننا لا نزال خائفين من البدو الرعاة ؟

ولـمـاذا يتـم إقحـام الانتمـاء قسـرا فـي تقديـم الروايـة ؟ حيـث يقـول المقدمون:

"إن من ضمن الفوائد التي ستعود على الطلاب "المصريين طبعًا" من هـذه الرواية " إدراك معنى الكلمة .. وضبط بنيتها لتنطقها سـليمة كما نطق بها أجدادك العرب!!" .

وهكذا بجرة قلم تنتقل بوصلة انتماء وقيم أطفالنا المصريين من الدولة المصرية العريقة إلى قبيلة بني عبس "الشقيقة"!!!

(*) أما عن القيم التي أوردتها القصة والتي يتمثلها البطل المغوار عنترة والأجداد العرب فقد أجملها عنترة في معرض دفاعه عن محاولته لسرقة النوق العصافير من الملك النعمان فيقول بعلو صوته للملك مبررًا السرقة :

"بل أنا أحد هؤلاء العرب الذين يطلب بعضهم إبل بعض في الغزوات. فما أنا أيها الملك ، وما أنت ، وما هؤلاء الشيوخ جميعًا سوى عرب يترددون بين الأودية في نجد وتهامة وهضاب الدهناء واليمامة وكلهم يسلب ويغزو. لست بلص أيها الملك إذا لم تكن أنت لصًّا ، وإذا لم يكن هؤلاء جميعًا لصوصًا" !!!!!

(ألا تذكرك هذه الفقرة بغزو العراق للكويت !!) .

وعليه، أو نتيجة لذلك يكون الرد الطبيعي والمنطقي لأطفالنا العبابيس الصغار الذين يعيشون على أرض لا ينتمون لها كالتالي:

"كان لابد أن نجد قضية نجمع حولها جمهورًا كبيرًا من المدرسة وليس الأمر سهلًا. المتعاطفون كثيرون، ولكن القضية الجامعة نادرة، وأندر منها القضية التي تستطيع أن تتخيل لها تصرفًا اعتراضيًّا بسيطًا، سهلًا وموجزًا".

"وجدنا قضيتنا بمحض الصدفة، تحية العلم - الهتاف "تحيا جمهورية مصر العربية" ثلاث مرات في طابور الصباح بصوت عال جهوري ممتلئ حماسة. بالنسبة لنا هذا هتاف يمثل تقديس ما لا يقدس من دون الله - تعالى - المستحق وحده للتقديس، لا وطنية في الإسلام إلا بمعنى الدفاع عن أرض الإسلام. الدفاع عن الإسلام في الوطن لا عن الوطن".

"والإخوة يقولون لنا إن النبي حين دمعت عيناه، وقد أخرجه الكفار من مكة، قائلا "والله إنك لأحب بلاد الله إلى قلبي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت" لم يكن يبكي بلده ولكن يبكي البلد التي هي أحب بلاد الله حكمًا. أحب بلاد الله إلى قلب النبي وإلى قلب كل مسلم في العالم لأنها أرض الإسلام الأولى وموطن بيت الله الحرام".

" أما بالنسبة للطلاب فقد روجناها كمزحة نحتفل فيها بغياب "حاكم المدرسة" (الناظر)، وقف الضابط العسكري الذي يؤدي تحية العلم يوميًّا ونظر إلى العلم وهو يرتفع، ثم صرخ كما يفعل دائمًا: "تحيا جمهورية مصر العربية" فإذا الآلاف يرددون خلفه "لا إله إلا الله".

الضابـط نفســه ضحك وهو يردد الهتاف التالـي . ومقولة لا إله إلا الله علت أكثر وأكثر . واعتبرنا ذلك نصرا ، قصة ستُحكى في كلمات قليلة لمن يأتي بعدنا" .

هذا جزء مما سـجله خالد البري لتجربته مع الجماعات الإسـلامية في كتابـه "الدنيـا أجمل مـن الجنة" ، ولكن مـا لم يذكره خالد هـو أن الضابط نفسه كان يهتف قبل سنوات قليلة على هذه الواقعة هتافًا آخر ، هتافًا رسميًّا قانونيًّا شرعيًّا معترفًا به بل موصى عليه من قِبَلِ الدولة وهو:

"تحيا الجمهورية العربية المتحدة" !!

يبـدو لي أن الفكر المصري منذ الخمسـينيات وحتـى اليوم قد وقع بين مطرقـة "الوطن العربـي الأكبر" وسـندان "دولة الخلافة الإسـلامية" فظل مترنحًـا بيـن الفكرتيـن ، ومثلما بحـث الثائـرون المصريون عـن قائد غير مصري ليعطوه ثمرة ثورة 1805 فنحن لا نزال نبحث عن وطن بديل لمصر لنعطيه ثمرة يوليو 1952 .

و لقد التزمت الفكرتان منهاجًا واحدًا في نظرتهما وتعاملهما مع الهوية المصرية يهدف إلى تغيير بوصلة الانتماء الوطني ويقوم على :

*** الإصـرار علـى طمـس الهويـة المصريـة ومحـو اسـم مصـر مـن علـى الخريطة:**

ولقـد أبدع التيار العروبـي في ذلك تمامًا ويمكنك أن ترصد عشـرات الأمثلـة منها اتخـاذ "الإقليم الجنوبي للجمهورية العربية المتحدة" كاسـم رسمي للدولة، وإطلاق اسم "التليفزيون العربي" على التلفزيون المصري، والاتحاد الاشتراكي العربي على مجلس الشعب المصري و"شركة الطيران

العربيـة المتحدة" على مصر للطيران ، والفريق القومي على فريق مصر في أي لعبـة كانـت !! بينمـا على الطرف الآخـر وضع التيـار الديني الأصولي السياسـي الدين في مواجهة الوطن فأصبح شعارهم الذي تـم ترويجه بهمة ونجاح هو: "المتدين اللي على حق هو اللي يقول للوطن لأ" .

*** استخدام شعارات براقة تجمع الجماهير وتعاقب المخالفين وترهبهم :**

شـعارات مثل "الإسـلام هو الحل" يقابله "وطني حبيبي الوطن الأكبر" و"إنـكار معلوم من الدين بالضـرورة" يقابله "الخروج علـى ثوابت الأمة" و"لا صوت يعلو على صوت المعركة" يقابله "لا تجادل" .

*** تكفير أو تخوين أي واحد يقول "يا جماعة هل ممكن ننتمي لمصر؟":**

وطبعًـا اتهامـات الانهزاميـة والانبطاح وشـق الصف والتبعيـة جاهزة للانطـلاق فـي أي وقـت . فالغريـب العجيـب أن الفكرتيـن قـد ربطتا بين محاولات الانتماء لمصر والعمالة لإسـرائيل وأمريكا!! ، مع أن المشـكلة المصرية الإسـرائيلية قائمة منذ آلاف السـنين منذ طـرد أجدادنا المصريين لبنـي إسـرائيل وحتـى طـرد أولادهـم المصرييـن للإسـرائيليين ، من بني إسـرائيل برضـه ، فـي 1973 - 1981 والأغـرب والأعجـب أن العرب قد كفـروا المصرييـن في الحالتين!!!!! فإذا أضفنا لهذا ما ذكره أسـامة غريب فـي المصري اليـوم بتاريخ 18 يناير 2010 بأن أحـد الملوك العرب قد أبلغ إسرائيل بميعاد حرب أكتوبر 1973 ، وبأن ملكًا آخر كان يسجل اجتماعات القمة ليرسـلها لإسـرائيل ، إضافة لتواجد القواعد العسـكرية والآلاف من القوات الأمريكية في دول الجزيرة العربية ، يكون اتهام المصريين بالعمالة و"خيانة القضية" هزلًا ما بعده هزل .

وقد خرجت مؤخرًا تنويعة جديدة مبدعة وهي تنويعة "بلا خوتة ، على إيه يا حسرة" وحقوق الطبع محفوظة لأصحابها من المفكرين الكبار ، ويمكن تلخيص الفكرة في كلام من عينة :

"يعني مصر دي قيمتها إيه والا عملت إيه يعني عشان تهوسونا بيها الهوسة دي كلها ، مصر دي يا عم ولا حاجة ، ولا علمت حاجة لا لغريب ولا لقريب ، بطلوا بقى الشوفونية المريضة دي ، يا أخي بلا خوتة" .

لقد نجح هذان التياران في تنحية الوطنية المصرية جانبًا وعملا بدأب على توجيه العقل الجمعي للمصريين تجاه هوية بديلة تتماهى فيها مصر ، وتذوب حتى تتلاشى في كيان مفترض وغير موجود في الواقع بل مجهول الملامح ، فكم دولة الآن على استعداد للدخول في "الدولة العربية المتحدة" ؟ وكم دولة على استعداد للدخول في "دولة الخلافة الإسلامية"؟ وهل الأطر القانونية والسياسية متناغمة أو حتى متقاربة أم أننا سنعيد تجربة "الجمهورية العربية المتحدة" مع ملاحظة أن هذه التجربة قد تم ضربها:

1- **من الداخل** ؛ نظرًا لمحاولة فرض ومطابقة النظم في الدولتين مع اختلاف الأطر السياسية والاجتماعية والقوانين المنظمة .

2- **من الخارج** ؛ وتم أيضًا ضربها لإحساس بعض الدول العربية الإسلامية بالتهديد نتيجة لقيام مثل هذه الدولة "العربية الإسلامية" المتحدة!!

وإذا كان البعض يرى في الاتحاد الأوروبي نموذجًا يُحتذى به ، إذًا يجب علينا أولًا تدارس هذا النموذج وطرح ما قامت به الدول الأوروبية كل على حدة حتى تتناغم نظمها لتستطيع القيام بوحدة لها مقومات النجاح، ثم نعيد طرح الأسئلة:

هل الدول العربية أو الإسلامية على استعداد لعمل مثل هذا التغيير في نظمها الداخلية ؟ (مرفق رقم 2) .

هل هناك جدول زمني لمثل هذا التغيير ؟

وهل هناك دول عربية وإسلامية ترفض مثل هذا التوجه وستعمل على إجهاضه ؟

وهل هناك دول تفضل الاستمرار في تكتلات أخرى قائمة ومغلقة عليها مثل مجلس التعاون الخليجي مثلًا ؟

(مرفق رقم 3) .

وهل هناك تخوف من بعض الدول من فرض الدول الأكبر لهيمنتها وسيطرتها وثقافتها وهويتها على الدول الأصغر فتذوب وتتلاشى ؟ (أيدت أكثر من 6 دول "عربية" غزو العراق للكويت!)

وهل الدول الإسلامية الأوروبية مثل تركيا وألبانيا ستفضل الانضمام للاتحاد الأوروبي ؟

وهل غيرت الدول الأوروبية ، كبيرة كانت أم صغيرة ، ومواطنو تلك الدول انتماءهم وولاءهم الوطني نتيجة الانضمام لهذا الاتحاد؟

أم أن الفرنسي لا يزال ينتمي لفرنسا ويفخر بها وبتاريخها ولغتها ، والألماني كذلك ؟

الوحدة الأوروبية لم تتطلب تماهي وذوبان هوية الشعوب وانتمائهم بل على العكس فلقد تطلب الأمر إصلاح كل دولة على حدة ، وتنمية قدراتها الداخلية حتى تستطيع أن تنضم للكيان الأكبر وهي قادرة على التناغم معه، والقيام بدورها فيه كوحدات كاملة الأهلية واضحة الهوية .

إن الدول القوية الواثقة هي التي تستطيع الدخول في كيانات أكبر دون وَجَلٍ ودونما إحساس بالتفتت والضياع ، بينما الدول المهتزة والتي تخشي الذوبان ، فستكون مترددة بل ورافضة ، وعليه فإذا كنا حقًّا وفعلًا صادقين في تحقيق الوحدة ، سياسية كانت أم اقتصادية ، فيجب علينا أن نؤصل بل ونثمن الهويات الوطنية القائمة ونتقبلها ككيانات ذات قيمة وإسهام في الاتحاد الجديد .

أما رهن حاضر مصر ومستقبلها فداء لشعارات غير واضحة المعالم، وطريقة التنفيذ فهو دعوة جميلة منمقة للجري وراء السراب ، وأما تحميل مصر وحدها عبء تحقيق هذا الحلم ، بينما معظم الدول العربية والإسلامية إما في تناحر بينها أو تتبنى أحلامًا أخرى أو خائفة من الذوبان، فلهو الهزل بعينه .

عادة ما تكون محاولات قطع التواصل مع تاريخ أمة من الأمم وتغيير بوصلة انتمائها وتمييع هويتها الوطنية ، جزءًا من محاولة استعمارية تسعى لفرض هوية بديلة تفيد المحتل وتثبت أقدامه ، ولقد عانت مصر دوما مثلَ هذه المحاولات ونجحت بجدارة في هضمها بل صهرها داخل البوتقة المصرية الأصيلة .

ولكننا اليوم أمام ظاهرة فريدة فمن يدعون لقطع التواصل مع تاريخ الأمة المصرية ويبشرون بتبني هوية بديلة لهم مجموعات من داخل المصريين أنفسهم !! وبعد أن كان المحتل لا يستطيع التفريق ، أو التفرقة بين المصريين أصبحت دعوات الفرقة تصدر من داخلنا وأصبح التمييز واضحا بل دعوات التمييز يتم تمريرها بسهولة ويسر ودون أي تحفظات ، أما عن دعوات التبعية فلقد أصبحت هي الأصل في الكثير من المقالات

والآراء حتى أصبحت كلمة "نحن" لا تعني بالضرورة المصريين ولكنها تترك لفطنة القارئ وقدرته على تتبع المقال حتى يعرف "من نحن!!" .

ومن أطرف ما روجه زكي جمعة وأتباعه حتى أصبح من الموروثات المقدسة ، ذلك القول الذائع الشائع الجامع المانع بأن المصريين الأجداد قد فنوا (يبدو أنهم قد قطعوا الخلف) واستُبْدِل بهم المهاجرون أو الغازون من هنا وهناك ، حتى أصبح من يعيشون على أرض مصر خلطبيطة لا أصل لهم ولا فصل!! ، وهو قول كان يردده أيضا ، ويا للمصادفة العجيبة!! ، اللورد كرومر المندوب السامي للمحتل البريطاني!! .

(خد بالك إن الواد زكي جمعة ده زي الحرباية ، مرة يبقى شبه الهكسوس ومرة شبه المجوس ومرة شبه أبو حلموس ، ويسأل في ذلك الرائع عادل إمام)

نرجع هنا لإمامنا الجليل مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده علّنا نجد إجابة تهدينا ، فنجده يقول تحت عنوان "طبيعة مصر والمصريين" :

" .. ولذلك ، كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف السنين، وكل قادم إليهم امتزج بهم ، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم ، وانتسب نسبتهم فصار مصريًّا وأحرز جميع خواص المصريين ، ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشؤه . ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال ، وألفت مقاومة القهر بالصبر ، فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك ، وجوره أشد من جور إسماعيل باشا ، لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارًا يذكر ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر . ولهذا ، كان المتغلبون يفنون فيهم، وهم باقون " .

وكمـا نعلم جميعًا ، فقد تُوفي الإمام محمد عبده عام 1905 وبما أنه لم يلاحظ فناء المصريين واستبدالهم لأجدادهم خلال حياته ، إذا من المؤكد أنـه قد تم فناء واسـتبدال أصـول وهوية عشـرات الملايين مـن المصريين خلال المائة وأربعة عام التالية لوفاته !!!

وهـذا هو ما يعلق عليه طـارق حجي في كتابه القيـم "ثقافتنا بين الوهم والواقع" ؛ حيث يقول:

"لقـد نشـأت فكـرة الهويـة العربية منذ أكثـر قليلًا من مائة سـنة على يـد مثقفيـن مسـيحيين مـن سـوريا الكبـرى .!! وكانت فكـرة بالغـة الرقي (بالشكل الذي قدمت به وقتها) .

لقد كان مسـيحيو سـوريا الكبرى يرفضون تأسـيس الهوية على أساس الديـن ؛ لأن ذلـك في ظل الإمبراطورية العثمانية ما كان ليعني سـوى أنهم مواطنون من الدرجة الثانية . وكان البديل الذي قدموه أسـمى وأرقى : لقد قاموا بتأسيس الهوية على أساس اللغة والثقافة .

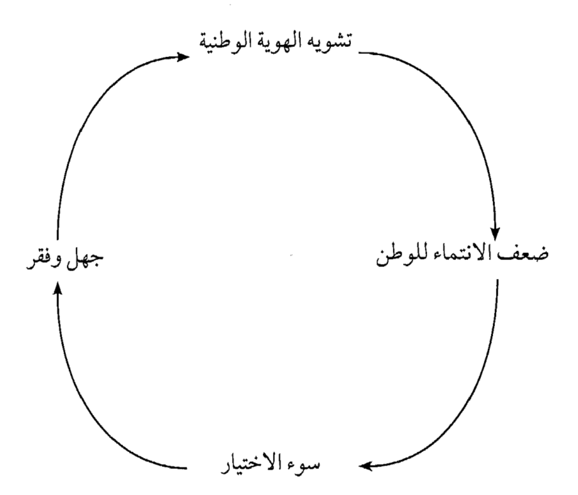
وهكـذا يتسـاوى المتكلـم بالعربيـة المسـلم ، مـع المتكلـم بالعربيـة المسـيحي. إن هـذه الأطروحة الراقيـة كانت أطروحة ثقافيـة أولًا وأخيرًا. ولكـن عسـكرًا صغـارًا أصحـاب محصـول ثقافـي ومعرفي هزيـل أرادوا اختـزال التاريخ والقفز بالرابطة العربية من رابطة ثقافية إلى رابطة سياسـية دون توافـر المعطيات ، فأجهـدوا الفكرة ودمروا أجزاء كبيرة منها . ثم جاء طاعون ثقافة النفط فجعل الفكرة العربية تابعة للفكرة الإسلامية (وهي في أصلها مسـتقلة عن أي دين اسـتقلالًا كليًا) فإذا بنا لا نسـمع اليوم إلا تعبير

الأمة الإسلامية والعربية ... وهكذا أصبحت الفكرة العربية ، التي أنشأها روادها (المسيحيون) لتكون بديلًا عن الهوية المؤسسة على أرضية دينية، ذيلًا للفكرة الإسلامية . ولا يملك المرء العارف بتاريخ الفكرة العربية إلا أن يقول:

"يا للسخرية" .

انتهى كلام طارق حجي ، ولا تعليق لدي بعد هذا .

دائرة الجهل والفقر



من إيزيس إلى شهرزاد

بعد أن أعطاني وصلة نقرزة وسخرية مبطنة على ما رآه في مصر من احتياطات أمن منفرة للسياح، وسلوك مزعج وغير متحضر من الباعة اللحوحين في سوق خان الخليلي؛ نظر إليَّ الزميل الألماني نظرة متعالية متفشخرة وقال بلهجة لم أستسغها وكأنه يحاول إلقاء الضربة القاضية في وجهي "كما تعرف فإننا قد اخترنا المستشارة ميريكل لتقود البلاد للمرة الثانية، طبعًا من المستحيل في مصر اختيار امرأة لمثل هذا المنصب" .

طبعًا الدم غلي في عروقي وفتشت سريعًا عن رد مناسب يفحم هذا المتعالي، والحق كان أمامي حلول ثلاثة، أولها طبعًا إني أردح له على طريقة أبو الفوارس عنترة وهو ينشد "فتح يا ابني فتح شوف مين بيكلمك دنا عنتر المفتح بصباعي أخرشمك" ولكنني خفت ليفتكرني مجنون والألمان معندهمش هزار والسراية الصفرا عندهم أكيد فولتها عالي شويتين، الحل الثاني أن أشرح له مدى جهله بوظيفة المرأة التي خلقت أساسًا من أجلها من رعاية للزوج والبيت والأولاد وخطورة بل خطيئة توليها مثل

هـذه المراكـز القيادية الحساسـة التي تتعـارض مع تكوينها الفسـيولوجي والبيولوجي والسوسيولوجي والفارماكولوجي هنا طبعا سيكون أمامه حل مـن اثنين إمـا أن يدخل معـي في نقاش يمكنـه أن يثبت لي فيه بسـهولة أن ميريكيـل أفضل من مئات الحكام مـن الرجال من أول بوش وأنت نازل أو أن يتجاهل تماما ما أقول مترفعًا ومتأففًا على أسـاس أن النقاش مع أمثالي من الحمقى لا طائل منه ، عملًا ببيت الشعر الألماني المعروف :

لِكُـلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَـبُّ بِـهِ   إِلَّا الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

وعليه فقد اخترت الحل الثالث ، فنظرت له من فوق لتحت نظرة متعالية متفشـخرة برضـه وأغمضت عيني الشـمال نصف تغميضـة وقلت له " من 5000 سـنة، يعني لما سيادتك كنت لسه بتتنطط على الشجر ، كانت الست حتشبسـوت تحكـم الإمبراطوريـة المصريـة العظمى ، ولو مصـر دلوقت متأخرة شوية معلهش الأيام دول ، والله يرحم جدودك" .

طبعًا الرفيق الألماني طب ساكت ، ولكن في حقيقة الأمر فإن المقارنة بين أحـوال المرأة المصرية الآن وما كانت عليـه خلال الحضارة المصرية هـو فـي صالح الماضـي على طول الخـط ، وحتـى إذا قارنا بيـن الحاضر والماضـي القريب حين بـدأت المرأة المصرية مشـوار التعليم والعمل بل والمشـاركة في الحركات الاجتماعية والحياة السياسـية ، من أول دخولها الجامعة وحتى مشاركتها في مظاهرات الاستقلال ، سنجد تدهورًا ملحوظًا في نظرة المجتمع للمرأة بل في نظرة المرأة لنفسها .

فاليـوم تم تلخيص وتقزيم مشـكلة المرأة المصرية في الشـكل وأصبح لباس المرأة هو الشغل الشاغل للمجتمع المصري الذي أصبح الحوار فيه محتدمًا بين أنصار الحجاب وأنصار النقاب وأنصار السـفور ، ودخل على

الخـط أيضا أنصـار الاحتجاب التام في المنزل على أسـاس أن الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح .

وأعتقـد أننا في كل هـذه الحوارات والمحاورات قـد غاب عنا الهدف حيث سيطر علينا هاجس العفة إلى درجة زادت على الحد ، وطبقا للقاعدة العلميـة المعروفـة "اللي يزيد عن حـدة ينقلب لضـده" أو للمثل المصري الجميـل الأصيل "لـكل فعـل رد فعل مضـاد له فـي الاتجاه ومسـاو له في المقدار" وبالتالي فبدلًا من أن يزداد عفاف المجتمع وترفعه عن الفاحشـة فلقد اسْتَشْرَتْ حالات التحرش الجماعي في الشوارع واغتصاب السيدات والأطفـال والمحارم وتحور فيروس هاجس العفـة إلى هاجس متطور هو هاجـس الجنس ، وأصبحنا نحمل ثقافـة جمعية مفادها أن كل امرأة ما هي إلا مجـرد غنيمة جنسـية ، وبالتالي يحق عليها العقـاب والاغتصاب إذا ما خرجت من خلف الأبواب !!

ولقد نشـر الأسـتاذ إبراهيم عيسـى إحصائية تقول إن 72٪ من سـيدات مصر محجبات (أو منقبات) وإن 70٪ من سيدات مصر قد تعرضن لحالات تحرش جنسي !! وقد تضاعفت حالات التحرش الجنسي من 62000 حالة في 2007 إلى 120000 حالة في 2008 !! كما نشرت المصري اليوم .

ولنعد هنا مرة ثانية إلى ما قد يفيد ، لعلنا نفهم ، ولنقرأ معا ما كتبه سلامة موسى عام 1947 في كتابه "تربية سلامة موسى" ص 38 فيقول:

"وكان الإنجليـز يحاربـون شـيئين فـي الأمـة لا ثالث لهمـا . وكانوا يكفلـون بقاءنا في ظلام الجهـل وذلة الفقر بهذين الشـيئين ، وهما التعليم والصناعة . ونجحوا في ذلك نجاحًا عظيمًا ؛ فلم يسـمحوا طوال إشرافهم

علـى وزارة المعارف بإنشـاء مدرسـة ثانوية للبنات فـي أي مدينة من مدن القطـر !!! وكانـوا يعلموننـا أن بلادنـا زراعيـة لا تلائمها الصناعـة !! كأن القـدر قد قضى علينـا بالفقر الأبدي . وكانوا يصـرون على المحافظة على "تقاليدنا" . فكانت المدرسة السنية الابتدائية في القاهرة ، وكانت ناظرتها إنجليزيـة ، تصـر على اتخاذ البرقـع للتلميذات وهن في العاشـرة أو الثانية عشـرة من العمر!! . وكان معلم اللغة العربية يفصل من وزارة المعارف إذا نـزع عمامته وقفطانه واتخذ البنطلون والجاكتة !! . وتقدمت الآنسـة نبوية موسـى لامتحان الشـهادة الثانوية في سـنة 1907 من بيتها ، فرفض دنلوب المستشـار الإنجليـزي لـوزارة المعـارف قبولها فـي الامتحـان !!!!!!! . ولكنها اسـتمرت علـى الكفاح وأحدثـت ضجة في الجرائـد وتقدمت في السنة التالية ، فقبلت ونجحت .

ولكن الإنجليز تنبهوا . فلم تفز فتاة مصرية بالشـهادة الثانوية منذ 1908 إلى 1929 ، حين تقدمت الفتيات اللاتي أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية في 1925 ، أي بعد الاستقلال بسنتين" .

شيء مذهل ، وكأن مصباحًا قد أضاء فجأة ، فاللعبة إذًا قديمة ولا دخل لهـا بالعفـة أو الشـرف أو صـلاح القيم والأخـلاق ، إلا إذا كنـت تعتقد أن المستشـار الإنجليـزي وحضـرة الناظـرة البريطانية يعتقدون في أن شـرف البنت زي عود الكبريت وأن البرقع وعدم التعليم هما وسـيلتان ضروريتان للحفـاظ على عفاف البنات المصريات . اللعبة إذًا هي في كيفية إبقاء مصر في "ظلام الجهل وذلة الفقر" حتى تسـتمر تابعًا ذليلًا خاضعًا للمستعمر أو ضعيفًا واهنًا أمام العدو أيًّا كان .

وإذا أضفنا للشهادة السابقة ما كتبه الشيخ محمد عبده عن أحوال النساء المصريات في الفترة نفسها حيث يقول:

"إن الأمة تتكون من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها .. ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة .. أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم بستار لا يدرى متى يرفع .. فأصبح حشو أذهانهن الخرافات، وملاك أحاديثهن الترهات، اللهم إلا قليلًا منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن" .

إذًا فالشيخ محمد عبده لم يجد فضيلة المرأة في التبرقع، أو البقاء في الخدور، وهو ما كان سائدًا مدة حياته (1849 – 1905) ولكنه وجد فضيلة المرأة في العلم بينما الرذيلة في الترهات والخرافات التي تسود العقول وتعمي البصائر، وربط هذا بصلاح الأمة، وهذا هو مربط الفرس، صلاح الأمة هو الأساس الذي دفع الشيخ محمد عبده ليقول قولته هذه بل وليشارك قاسم أمين في تأليف كتاب "تحرير المرأة"، وكما يثبت د. محمد عمارة في ص 263 من الأعمال الكاملة لمحمد عبده فيقول:

"الآن .. يمكننا أن نقدم الدليل الذي نراه قاطعًا على أن فصول (الحجاب الشرعي) و(الزواج) و(تعدد الزوجات) و(الطلاق) في كتاب تحرير المرأة إنما هي فكر خالص وصياغة خالصة للأستاذ الإمام" .

نعود مرة أخرى إلى ما يهم في هذا المقال ونتساءل، هل المجتمعات التي تتعامل مع مواطنيها خاصة النساء على أساس أنهن قُصَّر وميالات للشر والعهر ما استطاعوا لذلك سبيلًا، فتفرض نظامًا مقدسًا في الملبس والمأكل والمشرب والفكر هي مجتمعات متقدمة متطورة متحضرة أم أنها تعيش في ظلام الجهل وذلة الفقر ؟

هل هـذه المجتمعات منتجة وقائدة أم طفيليـة تعتمد على الآخرين في المأكل والمشرب والتعليم والدواء وحتى في الدفاع عن نفسها .

فهل أدى "حزام العفة" الذي كان منتشرًا في أوروبا إلى عفة النساء فعلًا؟

وإذا كان البعض يرى أن الوظيفة الأساسـية للمرأة هي في التزام المنزل ورعايـة الأولاد ، فهل أدى ذلك ، في الـدول التي تبنته ، إلى خروج أجيال أفضـل وأكثر تميزًا صحيًّا ونفسـيًّا وعلميًّا ؟ أم أنها تنتـج أجيالًا أكثر تطرفًا وجهلًا ؟

وهل أدى اضطهاد المرأة وتدني النظرة لها والذي تجلت بعض مظاهره فـي ظاهرة "حرق السـاحرات" في أوروبا ووأد البنـات في الجزيرة العربية إلى صلاح المجتمع ؟

وهل سيؤدي تفجير 189 مدرسة في باكستان في النصف الأول فقط من 2009 علـى يد طالبان ، ومعظمها مدارس بنات ، إلى ضمان عفاف البنات وصلاح البلاد والعباد ؟

وهـل ظلام الجهـل وذلة الفقر هما السـببان الرئيسـيان لوجـود ظاهرة الإتجار بالمرأة المصرية تحت سـتار الزواج الصيفي من شـيوخ الخليج ؟ حتـى إن بعـض القرى أصبحت تشـتهر به ؟ وله سماسـرة معتمدون ؟ وقد كشـف تقريـر صادر عن مركز الأرض أن 40٪ مـن القاصرات يتزوجن من أثرياء الخليج بسبب الفقر .

هل سـيطر علينا الشـكل إلى هذا الحد حتى أصبحنا لا نرى أي خطيئة في الـزواج الصيفي بينما نغرق في مناقشـات وخناقات لا تنتهي حول زِيِّ المرأة وزي الرجل ؟



صورة ترجع لعام ١٩٠٣ لفتاة من قبيلة الزوني من الهنود الحمر والتي كانت تعيش في نيو ميكسيكو .

هل أخذنا الشكل إلى درجة أن دعاة العفة والفضيلة لا يرون بأسًا ولا يرفعون صوتًا عند زواج 9300 قاصر مصرية في عام 2009 فقط ومنهن فتيات أصغر من 10 سنوات من العمر ؟ أم أن انتماءهم العرقي أو الديني يمنعهم من التصدي لهذه الظاهرة ؟(*) .

لقد أفردت مجلة الإيكونوميست في عددها الأخير (يناير 2010) ثلاثة موضوعات تتحدث عن التقدم الذي حققته المرأة في أوروبا وأمريكا في مجالي العمل والتعليم ، ولقد رأت المجلة في افتتاحيتها أن تحتفل بارتفاع نسبة العاملات من السيدات إلى 50٪ من حجم قوة العمل في أمريكا ، وبازدياد نسبة خريجات الجامعة من الفتيات عن نسبة البنين في الدول الغربية المتقدمة وبوصول النساء إلى أعلى المراتب في إدارة الشركات العالمية .

كما رأت المجلة أن التمكين الاقتصادي للمرأة قد يكون من أهم التغييرات الاجتماعية الإيجابية في هذا العصر .

ملحوظة أو فزورة : تقوم النساء السافرات قُلالات الحياء من مجندات الجيش الأمريكي بالدفاع عن بعض الدول العربية والإسلامية من تهديدات بعض الدول العربية والإسلامية ، ومازالت دعاوى عدم أهلية المرأة ووجوب احتجابها تصدر من «بعض» الدول العربية والإسلامية!!!

(*) على خلفية موضوع الزواج الصيفي ناقش أحد الأئمة في خطبة الجمعة في واحد من المساجد الصغيرة موضوع زواج القاصرات وأفتى سيادته بأن زواج القاصرات فوق 9 سنوات حلال حلال ، بينما اعتبر فضيلة مفتي الجمهورية ظاهرة الزواج الصيفي دعارة مقنعة. ترى من منهم يمتلك ويؤثر بشكل أكبر في العقل الجمعي للمصريين؟

قد يأخذنا هذا إلى ما تعانيه المرأة المصرية من حاجة للعمل ، وبالتالي إلى ما تم إقراره مؤخرًا من قوانين ونظم تقنن وتيسر عمل المصريات كخادمات في دول الخليج والذي نعتقد أنه نتيجة لالتزامنا المرضي في رؤيتنا للمرأة بالشكل دون الجوهر ، وبالتالي استمرار وقوع المرأة المصرية في براثن "ظلام الجهل وذلة الفقر" ، وعليه ، وبعد أكثر من 100 عام من فتح أبواب الجامعات المصرية للفتيات فها نحن نصدر الخادمات بدلا من الطبيبات ، وما زلنا غارقين "لشوشتنا" في مناقشات المظهر وطظ في الجوهر ، فالخطاب السائد الزاعق الساحق الماحق يدعو للالتزام بالحجاب والنقاب ليل نهار وعلى جميع القنوات وفي جميع شرائط الكاسيت ويدعو على المعارضين بالعذاب دنيا وآخرة ، ولكن لا يكاد يذكر ، إلا لمامًا إن ذكر وبشكل سلبي في معظم الأحيان ، أهمية تعليم المرأة وثقافتها وعملها ، وهنيئا لنسائنا بالزواج الصيفي وبعقود العمل كخادمات(*) .

إن الفكر السائد في مصر الآن ليكاد يكون مطابقًا للفكر الأوروبي في العصور الوسطى ، حيث تتم تغمية المجتمع بقضايا شكلية تضع المرأة ، وهي الحلقة الأضعف والأكثر تأثيرًا في آن واحد ، في بؤرتها حتى تأخذ "أليبوت والعائلات" وبالتالي المجتمع بأكمله إلى ظلام الجهل وذلة الفقر، فتستمر تبعيتنا ويستمر احتياجنا للغير فتهون علينا أنفسنا ونهون على الجميع .

(*) منع الحمل هو أحد الشروط الأساسية التي يُصِرُّ عليها الزوج الصيفي المبجل، وفي حالة حدوث حمل للفتاة يتم إجراء عملية لإجهاض الجنين ، وإذا لم يتيسر ذلك تتم تسمية المولود باسم أب الفتاة أو أخوها !!!!

الطنيخى قال «ما ينقضش»

فى سابقة غير معهودة، لعلها تكون الأولى فى تاريخ الجامع الأزهر تدخل الفتيات إلى قلبه وتعقد ندوة فيه، وكان ذلك فى عام ١٩٥٦ عندما فوجئ الشيخ محمد الطنيخى، عضو جماعة كبار العلماء، مدير إدارة الوعظ والإرشاد فى الأزهر، بسرب من طالبات قسم الصحافة بكلية الآداب يدخلن عليه مكتبه ويحاورنه كجزء من منهجهن الدراسى العملى.

وفى الصورة طالبات قسم الصحافة «غير مرتديات الحجاب» وهن يتحلقن حول الشيخ الطنيخى، الذى يبدو مبتسماً وبشوشاً وهو يصافح إحداهن، وإلى جواره شيخان آخران من شيوخ الأزهر.

الصورة نشرت فى مجلة «المصور» يوم ٤ مايو الموافق ٢٣ رمضان وتحتها علق المحرر قائلا: «وارتاحت الطالبات إلى سعة صدر رجل الدين.. وها هن وقد تسابقن إلى مصافحته شاكرات له كريم اللقاء والتشجيع»، كان هذا قبل هجمة التعصب التى استهدفت قيمة الاعتدال والسماحة والوسطية فى مصر.

أحمد شوقى



بنات سافرات داخل الأزهر والشيخ الطنيخى يصافح مبتسماً

المعادلة الطزية

وهكذا تم وضع وتكريس وتنمية وتأسـيس النظرية الطزية والتي يمكن تلخيصها في المعادلة التالية :

تبني النظرية الطزية المقدسة

+

الانفصال عن تاريخ مصر وحضارتها

+

لعن حاضر الأحوال

+

المشاركة في تأصيل حاضر الأفعال

(إما بالسلبية أو بالانتماء للفكر الطائفي والأصولي)

+

الانتماء لوطن آخر خيالي ومفترض

=

الضياع التام والموت الزؤام

الفصل الرابع

البدايــة

أنا حالفة بولادي

وبخضرة الوادي

بكرة لأجيبه من عينيك يا شطان

أنا راجعة بولادي ننور الغيطان

نبدر غناوي الحب زي زمان

ومهما تدور لزمان

حنغني ونجولى

غنوه دفا وحنان

وحصوة ف عينك يا مليك الجان

نوبة صحيان

6 أكتوبر 1973

- الحرب قامت . هكذا بادرت أبي حالما دخلت إلى المنزل عائدًا من مدرستي بعد انتهاء فترة الدراسة المسائية .

- حرب إيه!! . وهكذا رد أبي مندهشًا .

فتحنا الراديو وجلسنا نستمع للبيانات ولم يكن أبي مصدقًا لأيٍّ مما يقال ، فصدمة 1967 ما زالت مسيطرة والبيانات المضللة لا تزال ترن في وجدانه .

ثم أتت صحف الصباح بالصور ، وإذا بعلم مصر يرتفع فوق خط بارليف، وإذا بجنود مصر يمزقون نجمة داوود تحت أقدامهم ، تسبقهم تلك الابتسامة الساحرة لتنير الوجوه السمراء ، وإذا بطائرات الفانتوم المرعبة تتحول إلى لعب أطفال بلاستيكية مهشمة ، اختفى نعيق صفارات الإنذار وصيحات "طفي النور" التي استمرت طوال سنوات ، وارتفع

صوت الغنا، وأنا على الربابة ب اغني، رافع رايات النصر، حالف بسماها وبترابها.

ورأينا صفوفًا من الأسرى من بني إسرائيل، مشعثون مغبرون يسلمون أعلامهم لترتفع أعلام مصر، وضحكنا حتى الثمالة على طابور الدبابات الذي استسلم لجندي مصري خفيف الدم جسور القلب حمل علبة فول مدمس وهددهم بها فأسرهم جميعًا، وعجب العالم الذي قدر أن القنبلة الذرية لا تستطيع تحطيم خط بارليف وهو يرى إبداعًا عبقريًّا، فها نحن نشق جبل الرمال الشاهق بخرطوم مياه لتندفع الدبابات المصرية محتضنة أرض سيناء، يا الله، في عز الظلام واليأس، وإحساس القهر والعجز، تنفجر العتمة بالضياء، ويقف المصري في شموخ ويتضاءل التحدي إلى حد الهزال.

بكى ديان، وبكت جولدا مائير، وقفز العم الأمريكي غير مصدق لما يحدث، وصرخ هنري كيسينجر وزير خارجية أمريكا: "كيف فعلها المصريون؟".

لحظة فارقة في تاريخ مصر، نوبة صحيان مزلزلة، ولكن للأسف لم تستمر. فبدلا من أن ننمي ثقافة النصر والإنجاز والإبداع وبدلًا من أن يزداد التفافنا والتصاقنا بمصر، استسلمنا لزكي جمعة وهو يأخذنا مرة أخرى لمربعات التفتت واليأس وانعدام الثقة بالنفس؛ لتدور مصر حول نفسها في ساقية من الأفكار العفنة، فتارة يشكك في النصر، وتارة يمزقه ويمزقنا بين السادات وعبد الناصر، وتارة يتهمنا بخيانة الأمة العربية، وتارة ينذرنا بالويل والثبور وعظائم الأمور لبعدنا عن الدين الحق، وتارة يرفع علينا

السلاح ، وتارة يشغلنا بتوافه الأمور ، ونحن ندور وندور؛ ليتحول النصر إلى هزيمة ويتحول الدين السمح إلى قنبلة مفخخة ، ويتحول الوطن إلى ساحة للقتال والكراهية بين أبناء الوطن ، وليتحول المستقبل إلى مركب مكسورة نحاول الهروب بها من حضن الوطن إلى المجهول(*) .

يناير 2010

فاز أحفاد الفراعنة ، وحازت مصر على كأس إفريقيا للمرة السابعة في تاريخها ، وللمرة الثالثة على التوالي .

انفجرت الشوارع بالأعلام ، والأنغام والأغاني ، واسم مصر نشيد لا ينقطع ، وتردد الإنجاز المصري في أرجاء المعمورة الأربعة .

نزل الملايين إلى الشوارع دون وقوع حادثة سير واحدة ، ولا حوادث تحرش ، اختفى التجهم ، اختفت المطبات والحفر والسحابة السوداء ، نورت الضحكة اللي من القلب وزينت الوجوه السمراء ، طغت مشاعر الحب والانتماء والولاء لهذا الوطن الجميل على كل مشاعرنا السلبية والسليبة ، توارى الحزن خجلا واقتحم الفرح المكان .

ونزلت إلى الشارع مع أولادي لنرتمي في حضن الوطن ، الأعلام في أيديهم الصغيرة والفرح في قلوبهم الخضراء ، لفتنا زغاريد الفتيات وهتافات الشبان ، فرحنا وفزعنا من نيران البيروسول المشتعلة والراقصة على أنغام الهتاف الروش طحن "أوووه مصراوي" .

(*) أصبحت عبارة "نصر عسكري ولكن هزيمة سياسية" من أدبيات المتثقفين عند وصفهم لنصر أكتوبر ، وهكذا نشوه النصر الرائع بهزيمة مزعومة تروجها نفوس ضعيفة مأزومة.

وهكـذا فعل كل المصريين ، بلا اسـتثناء ولا تمييـز ، من كان هناك في المدرجات ومن كان على القهاوي الشعبية ، من كان في كافيهات الخمس نجـوم ومـن كان يقـف في الشـارع يشـاهد المبـاراة فـي فاترينـة محلات التليفزيونـات ، الـكل صرخ الـكل قفز ، الكل احتضن الـكل وقفز الجميع محلقيـن في مشـاعر الفرح والأمل ، لم يفكر أحد ولـو لجزء من الثانية في ديانـة أحـد أو في أصوله العرقيـة وانتماءاته العقائدية ، فمـا دام يحمل علم مصر في يده ومشاعر حب مصر في قلبه فهو منه وله .

اختفت كل الأحاسـيس السلبية التي يتم تلقينها لنا ولأطفالنا ليل نهار ، اختفت التفسـيرات التي يلبسـونها ثوبًا مقدسًـا والتي تحض على الكراهية المقدسـة ونبذ الآخر المدنس ، ذبنا جميعا في مصريتنا ، وظهرت مشاعرنا الفطرية الإنسانية السليمة والبريئة دونما شوائب ولا رواسب ، مشاعر حب للوطن وفرح به وانتماء له ، فدوى اسم مصر عاليا وتردد صداه من القلوب للحناجر لعنان السماء .

نوبـة صحيـان أخـرى ، وإن كانـت المقارنة ظالمـة ، ولكـن كما نقول "يوضع سره ف أضعف خلقه" ، قد تكون القشة التي يتمسك بها الغريق وقـد تكون القشـة التي تقصم ظهـر بعير اليأس ، لا يهـم ، المهم أن مظاهر الفرح والأمل مازالت قائمة ومستمرة ، تأمل في غد مختلف ومستقبل أكثر إشـراقًا يفيض بالأمـل لنا ولأولادنا من بعدنا ، غد يأخـذ مصر إلى المكان والمكانة التي تستحقها .

وفـي توقيتـات متزامنة توالت أحـداث فارقة ، وإن كانـت تبدو متفرقة، فقـد عـاد الطبيبـان المصريـان المحكـوم عليهم بألـف وخمسـمائة جلدة مـن السـعودية ، وحدث ما حـدث بين الجمهور المصـري والجزائري في

السـودان ، وثـارت للمـرة الألف مشـكلة الحدود مع حماس ، واشـتعلت حرب مريبة بين الحوثيين من ناحية والقوات الحكومية اليمنية والسـعودية مـن ناحية أخـرى ، وطلبت بعـض دول الخليج من الـدول الغربية القدوم بقواتها لمسـاندة اليمن ، ثم حادث نجـع حمادي الذي أخذ موضوع الفتنة الطائفيـة إلـى بعـد جديد ومفـزع ، ونترقـب الآن نتائج اسـتفتاء قد يقسـم السـودان بين شـمال وجنوب أو بين مسلمين ومسيحيين ، وإن كانت فكرة اسـتفتاء مـن هذا النوع وبهـذا المنطق مرفوضة ، فإن نتائجـه وتوابعها على مصـر ومسـتقبلها قد تكون أسـوأ من كل ما سـبق ، وقبل هـذا وبعده تطلع علينا صحف الصباح لتبشرنا بغرق الدلتا المصرية بما يمثله ذلك من عبء مهول على البشر والاقتصاد والمستقبل .

فـي خضـم كل هـذا وقـف المصريـون بشـكل أكثر هـدوءًا ليـس فقط لالتقاط الأنفاس ولكن لطرح الأفكار والتسـاؤلات عن حاضر ومسـتقبل مصر وتوالت الأسئلة:

- من هم الأعداء ومن هـم الأصدقاء ؟
- هل مقادير الدول ترتهن بالمشاعر الطيبة أم بالمصالح ؟
- هل تمتلك مصر حدودًا سياسية وعسكرية وأمنية واقتصادية واضحة يجب صونها وضمان أمنها ؟ أم أنها حدود واهية ومستباحة من هذا أو ذاك ؟
- الدول تتفتت من حولنا ، فهل حان علينا الدور ؟ ولمصلحة من ؟
- هـل حـان الوقـت لطرح سـؤال الهويـة والانتماء بشـكل أكثـر وضوحًا وجسارة ؟
- هل آن الأوان لاستشراف مستقبل أكثر إشراقا وأعظم أملًا؟

وتوالت ردود أفعال لم نر مثلها من قبل ، فاستمرت الأعلام خفاقة ، واستمرت المقالات تبحث دون وجل ولا تردد في قضية الانتماء والهوية، وتم لأول مرة تصنيف جريمة نجع حمادي بالوصف الصحيح والصادق على أنها "جريمة قام بها مجرمون ضد مصر والمصريين" ، فالجريمة لا دين لها .

ورأينا عناوين مقالات مثل "ليتنا فراعنة وليته فرعون " لمحمد المخزنجي ، و"مصرية فرعونية" لإسعاد يونس ، مع دعوات من د . خالد منتصر لوضع الهرم أو أبو الهول على علم مصر بدلًا من النسر ، واستمر الأستاذ عزت السعدني في غزل الماضي بالحاضر بالمستقبل ، بينما أصدر بهاء جاهين نسخة جديدة رائعة من قصة الفلاح الفصيح ، وأحضر لنا محمد سلماوي حكمة الأجداد في أحوال البلاد والعباد .

يبدو لي أن سنوات الغفلة قد شارفت على الانتهاء ؛ فالمصريون لم يعد لديهم طاقة على استمرار التخفي في هويات بديلة وانتماءات زائفة أكثر من ذلك ، فالثمن باهظ ، فإما التفتت والذوبان في المجهول أو العودة لأحضان الوطن .

والعودة لأحضان الوطن ، مجرد بداية لطريق المستقبل ، فلا مستقبل للمصريين بدون مصر ولا مستقبل لمصر بدون المصريين .

وأعتقد أن بداية الطريق ترتكز على ثلاثة محاور رئيسية :

- الانتماء لـ « مصر » .
- تحديد الهدف والاتفاق عليه .
- تمصير وتجديد النسق الفكري والثقافي للمصريين .

وسنحاول في الصفحات القادمة مناقشة المحاور الثلاثة .

أنا المصري

كريم العنصرين

بنيت المجد بين الأهرمين

جدودي أنشئوا العلم العجيب

ومجرى النيل ف الوادي الخصيب

لنا ف الدنيا آلاف السنين

ويفنى الكون واحنا موجودين

واقول لك ..

أنا المصري

مصر .. وطن يعيش فينا

- هـل حقًّا ماتت الحضـارة المصرية ؟ ووجب علينـا البحث عن حضارة أخرى لننتمي إليها ؟
- هـل دخـول الديـن المسـيحي أو الإسـلامي إلى مصـر يعنـي أن الهوية المصرية أصبحت هوية مسـيحية ثم إسـلامية (أو مسـيح - إسـلامية إذا صح التعبير)؟
- هل هوية الشعب ومستقبله مرهونة بلغته ؟
- هـل ثقافتنا التي نعيشـها حاليًّـا كمصريين منفصلة ومقطوعـة الصلة عن أجدادنا العظام ؟
- ما هي الرموز التي يتفق عليها الجميع في مشارق الأرض ومغاربها على أنها مصرية؟
- هـل إحياء التاريخ المصـري القديم يعتبر ارتداء لقناع لا يمكن أن يصبح حقيقـة أم هـو خلع لأقنعة شـوهت وجهنا لفترات طويلـة وقد آن الأوان لخلعها حتى يظهر وجهنا الحقيقي ؟

- وأين نحن الآن من التاريخ المصري القديم؟

للأسف الشديد أصبح طرح مثل هذه الأسئلة مكررًا بل ومبررًا ؛ فالنظرية الطزية أمواجها عاتية لعبت برءوسنا جميعًا ، وتم تبنيها حتى في المدارس وعلى القهاوي ، ويتم الآن ترويجها بكل قوة في قنوات التلفاز المملوكة لملوك الجاز .

ودعني أُجبْ :

1- إن أي متابع لحركة التأليف والنشر وللمواد الثقافية المصدرة في القنوات المتخصصة ؛ مثل (Discovery وNational Geographic) وغيرها يعلم تمامًا أن التاريخ المصري القديم نابض بالحياة وملهم للإنسانية جمعاء منذ ولادته قبل آلاف السنين وحتى اليوم ، وأن كم المواد المنشورة والمصدرة عن تلك الحضارة لا يعادله أي موضوع في العالم (اختيار زاهي حواس منذ عامين من أهم 100 شخصية في العالم يأتي في هذا الإطار) . أما عن تأثير الحضارة المصرية القديمة في الحضارة الإنسانية الحالية فدعني أحيلك إلى كتاب:

(A short History of Science ، JG Crowther 1969) "قصة العلم" التي خصص فصلها الثاني لبيان ما قدمه المصريون للعلم والعالم في مجالات: الزراعة ، بناء القنوات والسدود ، المبادئ الأساسية للهندسة، بناء الدولة ، عمليات قياس ومسح الأراضي ، علم الفلك (وقد ساعدتهم معارفهم الفلكية على بناء الهرم الأكبر في مواجهة الشمال بدرجة لا يتجاوز الخطأ فيها جزءًا من عشرين جزءًا من الدرجة) ، تمهيد الطريق نحو منطق البرهان في الرياضيات والعلم الطبيعي ، تميز خاص في علم الجراحة فاستخدموا الضمادات والأربطة واستطاعوا تجبير الكسور باستخدام

دعامات خشبية ومارسوا علاج الأسنان فقد صنعوا الأسنان الصناعية ذات الكباري لتعبر فوق السن المخلوع وعالجوا أمراض العيون بإفرازات المرارة التي يستخلص منها الكورتيزون ، صناعة الورق ... والقائمة طويلة جدًّا .

ما الذي مات من هذا التاريخ العلمي ؟ ألم يزل ينبض بالحياة وينتقل مع الإنسان فيأخذ منه ويبني عليه حتى يومنا هذا ؟ وقد بدأ المؤلف الفصل الثالث بعبارة "وإذا كان ثمة حضارة استفاد منها الإغريق أكثر من غيرها فهي الحضارة المصرية القديمة" مع تأكيده أن طاليس قد زار مصر وتعرف بها علمَ الهندسة وأن إنكسيماندر أستاذ فيثاغورث قد نصحه بزيارة مصر للتزود بالعلم والمعرفة . مره أخرى ما الذي مات من هذه العلوم؟

يوجد الآن أكثر من 240000 كتاب في موقع أمازون يتحدث عن مصر والحضارة المصرية 99٪ منها كتبه مؤلفون غربيون ممن يقدرون للحضارة قيمتها ، هل هذا دليل موات ؟

في أحد محاضراته قال الدكتور أحمد زويل "لو كانت جائزة نوبل موجودة أيام أجدادنا الفراعنة (المصريين) لأصبحت مصر حاصلة على 80٪ من هذه الجوائز خصوصًا في العلوم ... ومن يراجع التاريخ العلمي سيجد أن اسم مصر مذكور في كل فروع العلم" .

ويمكننا طبعًا إضافة الفنون من موسيقى ونحت وعمارة ، والرياضة من مصارعة وهوكي ، والهندسة والفلك ؛ حيث وضعت مصر الأساسات ودونتها وعلمتها للعالم .

أما كتاب (فجر الضمير) لجيمس هنري برستيد ، فيطرح تأثير الحضارة المصرية على مقاييس الأخلاق وعلى تأثيرها على الأديان بما فيها اليهودية والمسيحية فيقول برستيد: "إن المصريين كان لهم مقياس خلقي أسمى

بكثير من الوصايا العشر ظهر لهم قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة " ما الذي مات من هذه الأخلاقيات؟ ألم تبدأ الكثير من كتب مقارنة الأديان بالديانة المصرية القديمة وبأخناتون كأساس لعقيدة التوحيد؟

إن إهمالنا وجهلنا بتاريخنا وحضارتنا المصرية لا يعني موتها بل يوضح جهلنا بما نملك وبما يدركه العالم الأول من عظمة واستمرارية لحضارة ما زالت تبهر العالم يوما بعد يوم .

2- يفترض البعض أن دخول الديانة - مسيحية كانت أو إسلامية - يعني بالتبعية أن هوية مصر والمصريين قد تغيرت لتكون هوية دينية ، وكأن مصر (و المصريين) كانت لقيطة فوجدها أتباع الدين المسيحي فوضعوها بجوار الكنيسة ثم وجدها أتباع الدين الإسلامي فوضعوها بجوار المسجد . وهذا بالطبع ليس صحيحًا فالهوية المصرية قد تكونت عبر خمسة آلاف عام قبل نزول المسيحية وأكثر من خمسة آلاف وخمسمائة عام قبل نزول الإسلام .

دخول أي من الديانتين إلى مصر واختيار المصريين لاستبدال الديانة المصرية القديمة بهما قد أثر في أحد مكونات الهوية ، ولكنه لم يستبدل الهوية المصرية بهوية دينية . محاولة قلب الحقائق والادعاء بأن الدين هو الهوية ، فهم خاطئ لمعنى الهوية ولدور العامل الديني فيها (كما بينا من قبل) فلا يستطيع أحد أن يدعي مثلًا أن هوية المسيحي المصري (بما أنه مسيحي) تماثل المسيحي الهولندي ولا أن هوية المسلم المصري تماثل المسلم النيجيري . ولكننا في المقابل نستطيع أن نقرر حقيقة أن الهوية المصرية قد أفرزت الكنيسة القبطية والجامع الأزهر بما لهما من تميز وإضافة وتأثير على الديانتين المسيحية والإسلامية لدرجة أن الكثير من

المفكرين يعتقدون في وجود "الدين المصري" (إسلاميًّا كان أم مسيحيًّا)، وهـو دين أكثـر سـماحة وانفتاحًا واندماجًا فـي الثقافة المصريـة الموروثة والمتكونة قبل الديانتين بآلاف السنين .

إن الأديـان الموجـودة في المجتمع لهي أحد المصـادر المكونة لهوية أي شـعب ، ولكنها ليسـت المكـون الوحيد ، وهناك أمثلـة واضحة وجلية لشعوب لا تؤمن بالأديان السماوية ولكنها مع ذلك تملك هوية واضحة بل وحضارة مؤثرة وفاعلة ، وقد تكون الصين والهند مثالًا واضحًا لذلك .

3- هل من المعقول أن نكفر ونكره ونلعن ونقطع صلتنا بأجدادنا وحضارتنا الممتدة لآلاف السـنين فداء لقصتين ، لا نسمع غيرهما ، هما "فرعون موسـى وامرأة العزيز؟ لـم يأخذا من عمر التاريخ أكثـر من 70 عامًا !! (ملحوظة: الجانب الخير في القصتين من بني إسرائيل!) .

لماذا نتناسى أن المصريين هم أول من أقام حضارة على أساس الإيمان، وأن فيهم ظهر أول من دعا إلى التوحيد ؟

لمـاذا نتناسـى احتضـان أرض مصر وأهلها للمسـيح - عليه السـلام - وحمايتهم للعائلة المقدسة من طغيان اليهود من بني إسرائيل ؟

لماذا نتناسـى أن المصري كان يصوم ويصلي ويتعبد لله الواحد الأحد منذ فجر التاريخ ؟

ولماذا نتناسى أن حضارة المصريين والتي قامت على أساس إيماني واضح بالله واليوم الآخر قد وصلت إلى ذروة رائعة سجلها القرآن الكريم في أكثر مـن موضع ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴾ (الدخان من 25 - 27) .

ولماذا نتناسى ما قدمته مصر والمصريون من مساهمات رائعة في الفكر الديني والدفاع عن الأديان والأرض والحضارة ؟

هل يجب علينا أن نذكر أنفسنا والآخرين بأننا قد دحرنا التتار والصليبيين؟ وتأثير ذلك على الإسلام والمسلمين والمنطقة بأكملها ؟

فلنتصالح مع ذاتنا وتاريخنا ، ولنتخلص من عقدة الذنب المجهولة .

4- اختزال مستقبلنا وهويتنا في اللغة هو اختزال مخل وغير موضوعي، فاللغة وعاء يمكن أن يحتوي الخير أو الشر ، العلم أو الجهل ، قد تسهل اللغة الاطلاع على الثقافة المنشورة بهذه اللغة وتصبح أحد مكوناتها الثقافية ولكنها لا تغير هوية المتلقي ، إن استخدام المصري القديم للغة اليونانية لم تجعله يونانيًّا مثلًا ، ولا أعتقد أن استخدامنا للغة العربية إبان الفتح قد جعلنا أعرابًا ، واستخدام الجزائريين للفرنسية لم يجعلهم فرنسيي الهوية ، ولا أصبح النيجيريون لوردات أو إكسلانسات إنجليز ، حتى الدول الحديثة ، والمولودة أول امبارح، والتي تتحدث اللغة نفسها نجد لها هوية خاصة بها وتعمل على تأصيلها، فالأسترالي ليس أمريكيًّا ، والأمريكي ليس إنجليزيًّا ، وهل ادعى الأنجوليون والبرازيليون والغينيون أنهم برتغاليون؟ وهل نستطيع أن نقول بأن الكاتب الكولومبي جابريل جارسيا ماركيز إسباني الهوية !!!

قد تضيف اللغة بمدلولاتها وموادها إلى بوتقة الهوية ولكنها بالقطع لا تستبدل الهوية .

إن الفتح العربي ووقوع مصر تحت ولاية الدولة الإسلامية لا يعني بأي حال من الأحوال قتل هويتها المصرية الزراعية الحضارية التي تكونت عبر 5000 عام وارتداء هوية جديدة أعرابية رُعوية إلا إذا كنا نعتقد بأن الشعوب

تستبدل هويتها مع تغير من يحكمها وعلى هذا تكون الهوية المصرية قد تبدلت بين الهكسوسية ثم الأشورية فاليونانية الرومانية فالبيزنطية وحتى بعد الفتح العربي فهل تبدلت هويتنا من عربية إلى فاطمية(شمال إفريقية شيعية) فمملوكية (كردية ، البانية ، شركسية) ثم عثمانية تركية ؟؟ وأين تقع الهوية العربية المدعاة وسط المماليك والأتراك ؟؟ والمعروف طبعا أن مدة حكم المماليك زائد الأتراك تصل لأكثر من 550 عامًا وأن الكثير منهم عاش وحكمنا وتوفاه الله وهو يحدثنا بالتركي .

5- دعنا نرسم معًا دورة حياة الإنسان المصري ونرى إذا كان هناك فرق قد حدث من 7000 سنة أو يزيد حتى اليوم:

• يولد المصري وتتم له عملية الختان (مرسوم على المعابد) .
• يقام له السبوع وتتمتم له أمه "اسمع كلام أمك ومتسمعش كلام أبوك" (مذكور في قصة إيزيس وأوزوريس) .
• تطالبه أمه بالأخذ بالثأر (قصة إيزيس وأوزوريس) .
• يدق الوشم (عادة مصرية قديمة) .
• يلعب النحلة ، الباط ، التحطيب ، تريك تراك والسيجة (وكلها ألعاب مصرية قديمة) .
• يستعمل كلمات أصلها ومعناها هيروغليفي مثل : تاتا ، توتو (وليد)، كحكح (عجوز) ، تف تف (مزكوم) ، برطم (لخبط) ، طنش (لم يستجب) ، بربش (حرك جفونه) ، بتاو (خبز) ، عيش (معناها مقدس) ، طن نت (طنطا) ، دمن هور (أرض الإله حور) ، متمس (مدمس) ، بتك (بطيخ) ، ح ، شي ، عا ، بس ، كخ (قذر) ، طخ (صوت مفاجئ) ، هب، زمزم (ارتواء) شبرا (الأرض المرتفعة) .

- يشرب من القلة والزير .
- يستعمل الفلايات (موجودة بالمتحف المصري) .
- يبني بالطوب اللبن أو الطوب اللبن المحروق (الأحمر) .
- يستعمل الفأس والشادوف والمحراث والطنبور .
- الكردان والثعبان والحلي تتشابه كثيرا وقد تتطابق مع الحلي المصرية القديمة .
- تقوم السيدات بخض اللبن والزبد في جلد الماعز وباستعمال المغزل.
- الناي والطبول في الغناء .
- يسجد لله الواحد الأحد ويصلي ويصوم ويحج تقربًا وابتهالًا (أول سجود وركوع في تاريخ الأديان منقوش على جدران المعابد المصرية) .
- زيارة الأولياء والأضرحة (عادة مصرية قديمة غير إسلامية) .
- يقيم الموالد في طقوس تتطابق تمامًا مع طقوس الأجداد يمتزج فيها الدين بالفن والحياة ففيها صلاة وتضرع ، وابتهالات وتواشيح ، وبيع وشراء .
- الكحك في الأعياد .
- الفسيخ والسردين في شم النسيم .
- طقوس الموت من الخميس للأربعين ، للدفن في مقبرة ، ثم الولولة واللطم وتعديد مناقب المتوفى ، رحمه الله .

ما الذي مات مما سبق ؟ وهل ما تم استبداله – إذا ما تم – يرجع إلى العصر الإسلامي أو القبطي مثلا؟ أو للحلم العروبي ؟

(أرجـو الرجوع هنـا إلى كتاب نزول النقطة للأسـتاذ جمال الغيطاني ، والذي يؤصل فيه لاستمرارية الهوية المصرية وثقافتها الموروثة) .

6- ما المدلول الحقيقي لاسـتبدال رموز قبطية أو إسلامية بالرموز المصرية القديمة كالهرم وأبو الهول وتوت عنخ آمون . فإذا عرضنا مثلًا الكنيسـة المعلقة كم شـخصًا في هذا العالم بأكمله سوف يربطها بمصر ؟ الشيء نفسه بالنسبة للجوامع ، جامع محمد علي مثلًا ، هل تعتقد أن الصيني أو البرازيلي مثلا يمكن أن يربط الكنيسة أو الجامع بمصر ؟ أما إذا عرضت الأهرام أو أبو الهول أو الكتابة الهيروغليفية على أي طفل في أي مدرسة في العالم فستكون مصر هي الكلمة الفورية المقابلة لهذا الرمز .

مـاذا لو أطلقنا لقب منتخب العـرب ، أو المنتخب العربي على منتخب مصر ، هل سـيربط أحد هذا الفريق بمصر ؟ ولكن لو قلنا منتخب الفراعنة فستكون مصر هي المقابل الوحيد والفوري .

من شـدة كـره البعض للأجـداد الفراعيـن العظـام (أو من شـدة جهلنا بقيمتهـم) ، ومـع تنامي تيار الدين الشـكلي ، أطلقنا لقب فريق السـاجدين على منتخب مصر ، فوقع المذيعون في حيص بيص عندما لعبنا مع الجزائر فهـم أيضًا سـاجدون بعد كل هدف ، وعلشـان محدش يزعـل أخذ المذيع عصام الشوالي يبحث عن لقب له مدلول ديني يصلح لفريق الجزائر ويميزه عن مصر فوجد ضالته في لقب منتخب المجاهدين !! فأصبح المجاهدون فـي مقابل أو ضد السـاجدين ، وهكذا فرح الجميـع وزأططوا فالمصريون لـم يتخلوا عن لقبهم والجزائريون حصلـوا على لقب جديد وهكذا اكتمل الشكل الجميل .

(أما الأحداث والأفعال التي صاحبت المباراة فلا علاقة لها بأي ساجدين ولا مجاهدين ولا متدينين ، ولكن لها علاقة وثيقة بالبلطجية والمتعصبين والمتخلفين) .

جريًا على ذلك فقد يتم إطلاق ألقاب ذات مدلول إسلامي على فرق الدول الإسلامية الأخرى فنرى فريق العابدين وفريق القانتين ، وهكذا يستمر استخدام الدين في غير موضعه تزلفًا لمشاعر دينية شكلية ، وطبعًا قد يتطور الأمر ، ونحن ملوك التطور متبعين في ذلك المثل الجميل "ييجي ف الهايفة ويتطور" ، ويتم إطلاق ألقاب مسيحية على منتخبات أوروبا ، فيصبح المنتخب الإنجليزي فريق الصليبيين والفرنسي فريق المتعمدين والسويدي فريق الهوسبيتاليين ولتبدأ الحرب الكروية الدينية العظمى بلقاء المجاهدين ضد الصليبيين في كأس العالم القادمة !! .

على مستوى الأشخاص دعنا نستبدل رمز الفرعون الذي يطلقه العالم على المجيدين من المصريين ، ما رأيك في "المملوك" الحضري أو "الوالي" حسن شحاتة أو الخديو أحمد زويل ، وبغض النظر عن رأينا في المماليك والولاة ، فقد نختلف أو نتفق عليهم ، فإن المؤكد أنهم لم يكونوا مصريين .

7- لماذا لا ننظر إلى إحيائنا وقربنا من تاريخنا المصري القديم على أنه يمثل إحياء لجذورنا الحقيقية التي تنصهر فيها الأديان والألوان والمشارب تحت كلمة واحدة هي مصر التي يمثل تاريخها حلقات من الحقب المختلفة المبنية على أساس واحد قوي وعظيم هو الحضارة المصرية .

قد يكون هذا هو أول الطريق إلى إيجاد صيغة صحيحة وصحية للمواطنة المصرية، ولتقبل الأفكار والأديان التي أتت إلينا عبر البحار والصحاري بشكل يتفق وحضارتنا وقيمنا مثلما فعلنا مع الكنيسة القبطية المصرية والتي مازالت ترانيمها تغني باللغة القبطية (وهي مزيج من اللغة المصرية القديمة المطعمة باليونانية) حتى وقتنا هذا، فعلنا هذا أيضًا مع الإسلام بإنشاء أول جامعة إسلامية تحمل فكرًا وثقافةً مختلفةً وأكثر سماحة من غيرها. وإذا كنا نرى الآن ثورة 19 كباعث لنهضة فكرية وثقافية وعلمية ظهرت نتيجتها الثقافية والحضارية والوطنية فلنرفع نحن أيضًا شعار "الوطنية ديننا" كما رفعه المصريون في ثورة 1919.

8- أين نحن الآن من الحضارة المصرية القديمة؟ كما قال البابا شنودة "ليست مصر وطنًا نعيش فيه ولكنه وطن يعيش فينا" شئنا أم أبينا هذا الوطن ترجع جذوره وحضارته وثقافته إلى 7000 عام أو يزيد، وعليه فإن محاولة قطع الجذور أو استبدالها يطرح ثمارًا فاسدة وعقيمة مما نشاهده اليوم في حياتنا من ازدواجية الأفكار وانعدام للانتماء أو الانتماء لجهات أخرى ولأفكار تتناقض مع طبيعتنا المصرية.

.. ولنستمع إلى ما قاله طه حسين: "ومن الناس من ينكر على مصر حرصها على تراثها الفرعوني القديم، ويشوهون هذا الحرص ألوانًا من التشويه، فليكن رأينا في ذلك واضحًا جليًا وهو فيما أعتقد رأي المصريين جميعًا لا يختلفون فيه، فمصر حريصة على تاريخها كله لا تتنازل عنه عن قليل أو كثير، وهي إذا حرصت على تاريخها الفرعوني لا تريد أن تعود إلى دين الفراعنة، فهذا سخف، ولا تريد أن تتكلم اللغة المصرية القديمة مكان اللغة العربية، فهذا سخف أيضًا، ولا تريد أن تصطنع نظم الحكم الفرعوني مكان نظمها الديمقراطية الحديثة. وإنما تريد أن تنظر

إلى هذا التاريخ ، بما كان فيه من خير وشر ، على أنه جزء من حياتها ومقوم لوحدتها ومكون لوطنيتها ، تفخر بما يدعو منه إلى الفخر ، وتألم بما يدعو منه إلى الألم ، وتعتبر بما يثير منه العبرة ، وتنتفع بما يمكن أن يكون مصدرًا للنفع ، وكل مصري يزعم غير هذا فهو إما مخادع أو مخدوع أو ضعيف الوطنية ، وما أعرف أن من المصريين من تضعف وطنيته فيفرط في تاريخه، أو تضعف أخلاقه فيؤثر الخداع ، أو تضعف شخصيته فينخدع بتمويه المموهين".

* * *

يبدو لي أن الاستمرارية والجري في المكان الذي مارسه المصريون والذي عرضته في النقطة رقم 4 كان حالة من حالات التشرنق اللازمة للحفاظ على هويتهم العظيمة والأصيلة من الاندثار تحت نير حكم رعوي أو بحري لا يرى في مصر إلا بقرة حلوبًا .

ويظهر هذا جليًا في الملمات والشدائد ، عندما تصبح مصر مهددة بما يقتلها ويسلخ روحها عنها وعن أبنائها ، عندها تخرج من الشرنقة الروح المصرية الأصيلة تحلق في السماوات السبع وتلون الدنيا بالبهجة والتفاؤل والأمل ، يصبح "الكل في واحد" وتصبح هويتنا وانتماءاتنا واضحة وجلية بل وفاعلة ، ولكن للأسف لفترة بسيطة نهد فيها الدنيا ثم نهدأ ، ونجلس لنتعجب ونسأل كيف انقطعت المسيرة ولماذا؟ والجواب لديَّ واضح وبسيط ، عندما يختل انتماؤنا تفسد اختياراتنا فيغيم مستقبلنا ولا نرى الطريق .

وقد تمثل "صلاة الوحدة الوطنية" رمزًا وفعلًا مهيبًا قام به المصريون عندما تقرر سفر سعد زغلول لبدء مفاوضات الاستقلال مع المحتل البريطاني في لندن . فلقد كتب أمير الشعراء أحمد شوقي دعاء يتوسل

بـه أبناء مصر في يـوم واحد إلى الله أن يوفق الوفد فـي مفاوضاته .. فألف شوقي الدعاء وصلى به المصريون في يوم واحد وكان يوم جمعة(*) .

ويقول عبد العزيز فهمي ، في كتابه هذه حياتي الذي نشر 1963 :

إن إقبـال المواطنيـن المصرييـن على المسـاجد والكنائـس كان إقبالًا شديدًا، شهد جموعًا احتشدت بكثرة غير عادية .. وذكرت إحدى الصحف أن بعـض المواطنيـن الأقبـاط لم يجـدوا كنائـس قريبة فدخلوا المسـاجد ليشـاركوا فـي الدعـاء كما دخـل المسـلمون الكنائـس القريبة مـن أماكن وجودهـم حينما لم يجدوا مسـاجد قريبة .. فالوطـن والدعاء له جعل لهم من أرض الله كلها مسجدًا أو كنيسة يصلون في أي منها صلاتهم المشتركة .. والتي قال فيها شوقي :

"اللهم قاهر القياصر

ومذل الجبابر

....

هذه كنانتك فزع إليك بنوها

وهُرع إليك ساكنوها

هلالًا وصليبا

بعيدًا وقريبا

شبانًا وشيبا

نجيبة ونجيبا

مستبقين كنائسك المكرمة

التي رفعتها لقدسك أعتابا

(*) د. أنور عبد الملك في كتاب " الوطنية أولًا " .

ميممين مساجدك المعظمة
التي شرعتها لكرمك أبوابا
نسألك فيها بعيسى روح الحق
ومحمد نبي الصدق
وموسى الهارب من الرق
كما نسألك بالشهر الأبر والصائمية
وليلة الأغر والقائمية
وبهذه الصلاة العامة من أقباط الوادي ومسلميه
أن تعزنا بالعتق ، إلا من ولائك
ولا تزلنا بالرق لغير آلائك
ولا تحملنا على غير حكمك واستعلائك

....

حتى يقول :
ولا تجعلنا اللهم باغين ولا عادين
واكتبنا في الأرض من المصلحين
غير المفسدين فيها ولا الضالين
آمين

....

ما أحوجنا الآن إلى مثل هذه الصلاة لنرفعها في المساجد والكنائس والجامعات والمدارس ... ما أحوجنا الآن لمثل هذه الصلاة لتؤصل الانتماء وتدفع بمستقبلنا قدمًا إلى الأمام .



استلهمت النهضة المصرية الحديثة الحضارة المصرية ؛ حيث يبدو هنا غلاف أحد مجلات الأطفال وهو يمزج بين رواد التنوير وآثار مصر الخالدة .

مصر .. وطن نعيش فيه

ما الهدف الذي تسعى إليه المجتمعات والدول المتقدمة ؟

وما هي النتيجة المرجوة من كل عمل وموقف وفعل لكل فرد من أفراد المجتمع ومن مؤسسات المجتمع ككل؟

يلخص مايكل فيربانكس الهدف في كلمة واحدة هي Prosperity (الازدهار) والتي يعرفها هكذا:

"هي قدرة الفرد ، والمجتمع والدولة على توفير مقومات الحياة الأساسية (الأمن ، المسكن ، الغذاء ...) وكافة المستلزمات والمنتجات التي تكفل حياة كريمة . (طبقا لمفهوم كل مجتمع عن ماهية الحياة الكريمة) .

وقد تتضح أهمية هذا الهدف إذا ما أوضحنا أن الدول التي لا تستطيع الوصول إلى طريق التطور والازدهار تقع في براثن "الفقر" ، والفقر يهدي المجتمعات التي بليت به حزمة مدمرة من المصائب المادية والمعنوية ومنها :

- سوء التغذية وضعف النمو .

- انخفاض معدلات إدراك الأطفال . (طبقًا لإحصائيات التسعينيات فإن 84٪ من أطفال العالم يعيشون في فقر) .

- ارتفاع معدل الوفيات خاصة لدى الأطفال .

- تدني مستوى التعليم كمًّا وكيفًا .

- ارتفاع معدلات الوفاة لدى النساء عند الولادة (في الدول الفقيرة يموت 607 نساء من كل 100000 بينما في الدول المتقدمة يموت 11 فقط من كل 100000) .

- الفقر، أيضًا، يقتل الطموح ويغتال الأمل والسعادة لدى أفراد المجتمع.

في الناحية الأخرى توجد مراجع كثيرة تؤصل لوجود علاقة واضحة ومؤكدة بين ازدهار الدول وتقدمها وبين :

- ارتفاع دخل الأفراد .
- التصرف الإيجابي تجاه الدولة .
- قبول الآخر .
- مساندة الحريات العامة والشخصية .
- تقبل الأغراب .
- وجود علاقات صحية وبناءة في العمل .
- الاعتزاز بالنفس .
- الإحساس الشخصي بالقدرة على الإنجاز .
- المشاركة الإيجابية في المجتمع والوطن ككل .

- الثقة المتبادلة بين الأفراد .
- رضاء الفرد عن حياته .

وكما أسلفنا في الفصل الثاني ، فإن تحقيق التطور يتطلب إيجاد نسق فكري وثقافي يدفع بأفراد المجتمع ومؤسساته ناحية قيم التطور وهناك مئات الدراسات وعشرات التجارب التي يمكننا دراستها والبناء عليها للوصول إلى هذا الهدف .

إن اتفاق أفراد المجتمع على هدف أساسي دائم ومتجدد ، يصبو لتحقيق الرخاء والازدهار ، لهو أمر مهم يضعنا دائمًا في الاتجاه الصحيح ويمنعنا من التشتت والتشرذم حول أهداف عرقية أو طائفية ضيقة لا طائل من ورائها إلا تأصيل الفقر والمعاناة لنا ولأبنائنا من بعدنا .

فلنتحد جميعا ولنسعَ لتحقيق رخاء وازدهار ونماء مصر .

و.. دعوة للتناغم

عاش المصريون أجيالًا وراء أجيال، بل قرونًا وراء قرون، وهم يتخبطون بين أفكار التعريب والتغريب والتتريك، فتثور مناقشات وحوارات طويلة مضنية وطفولية بمنطق "انت أهلاوي واللا زملكاوي" نغرق فيها جميعًا ولا نصل إلى حلول.

مع أن التاريخ يثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك أن مصر والمصريين يصلون إلى ما يصبون إليه من تقدم حال التصاقهم بمصر أولًا وأخيرًا.

فترة الحضارة المصرية دليل ساطع، والفترة الليبرالية أو بالأحرى فترة التنوير التي بدأها رفاعة هي دليل مؤكد ومثبت، وما بينهما من ظلام وإظلام لا يحتاج لشرح، والتاريخ خير معلم.

ولقد ترك لنا الأجداد، كما أسلفنا في الفصل الثاني، وصفة عظيمة وروشتة شافية وناجعة، خرجت من طمي الأرض السمراء ومن القلوب العامرة المحبة للوطن، روشتة من الوطن وإليه ترتكز على:

- إرساء العدالة .

- تأصيل الفضيلة والأخلاق .

- إعلاء مكانة المرأة والأسرة .

- الإيمـان باللـه الواحـد الأحد إيمانًا فعليًّا يظهر في العبـادات ويثبت في المعاملات .

- الحب والشغف والبحث الدائم عن المعرفة والحكمة .

- الانصهار في البوتقة العظيمة "أرض مصر" .

هـذه هي الخلطة المصرية للحضارة ، إهمال أي عامل منها لن يصل بنا إلى ما يرضينا بل وقد يوقف المسيرة .

وإذا كنـا قد نتفـق جميعًا على أهمية تلك النقاط السـت ، فإن بعضنا قد يختلـف في جزئية الإيمان حيث يرى نمـوذج الحضارة الأوروبية منفصلًا عـن الدين والإيمان بشـكل واضح ، بل إن هذا النمـوذج الأوروبي لم ينمُ ويزدهر إلا بعد صدامات عنيفة بين الدين والعلم .

الوضـع في مصر مختلف ، فالإيمان باللـه واليوم الآخر مجدول داخل حضارتنا ولم يمنعها من أن تتبوأ قمة الحضارات ، بل على العكس، فرجل الديـن في مصر هو أيضًـا رجل العلـم والثقافة والفـن ؛ فالمعابد المصرية كانـت تضم المكتبـات ، والمعامـل ، والاحتفـالات الدينية كانت تشـمل الموسيقى والغناء .

لـم يثبت لدينا أن رجال الدين قد اضطهدوا عالمًا (يمكن هنا مقارنة ما فعلته الكنيسـة في العصور الوسـطى بجاليليو في مقابل مـا ارتفع إليه علم

الفلك في مصر) أو مفكرًا (كاتبًا) ، أو فنانًا ، أو امرأة (فلم تعرف الحضارة المصرية حزام العفة ولا وأد البنات ولا حرق الساحرات) ، بل قد يبدو جليًّا أن الدين والفنون والعلوم متلازمان في الشخصية المصرية ويمكننا أن نعرف الإنسان المصري بأنه "مؤمن مبدع" أو "مبدع مؤمن" وهذه في رأيي أهم خصاله وفي القضاء عليها قضاء على روح مصر والمصريين .

وهل تغير الأمر في مصر الحديثة ؟

يقول د . مصطفى محمود مدللًا على الارتباط الوثيق بين الدين والفن على أرض مصر : " ... فالشيخ صبح والشيخ علي محمود وغيرهم كانوا يغنون القصائد على التخت إلى عهد قريب ، وأم كلثوم تعلمت الأداء على يد الشيخ أبو العلا محمد شيخ الملحنين في زمانه وكان جوابها لكل من يسألها عن سر نطقها السليم ونبراتها الجميلة في الأداء .. أنه القرآن وحفظها للقرآن الكريم من الصغر " .

ثم يستطرد :

"وحرمة الموسيقى غير واردة في تراثنا الديني ...." .

"والفن لم يكن ضد الدين في أي مرحلة من مراحل التاريخ المصري القديم والحديث .. وإنما كان توأمًا وشقيقًا ومصاحبًا له طول الوقت ، ومن خمسة آلاف سنة بنى الفنانون الأهرامات والمعابد ونقشوا جدرانها وزينوا سقوفها ، وعازفة الهارب مرسومة على جدران مقابر الملوك" .

" وفي العصر الإسلامي كان الفنان هو الذي بنى القباب والمآذن والمنابر والمشربيات .. وكلمة العود دخلت بنصها العربي في كل اللغات الأجنبية والموشحات الأندلسية دخلت في السيمفونيات الأوروبية" .

وأين يمكننا أن نضع "رفاعة الطهطاوي" و"محمد عبده" و"طه حسين"؟ أليسوا فلاحين مصريين أزهريين علماء مثقفين قادوا مسيرة تنوير مصر وما حولها ؟

وهل يمكننا أن نذكر "سيد درويش" بدون لقب "الشيخ"؟ وكذا الشيخ زكريا أحمد والشيخ سلامة حجازي ، وهل يمكن إنكار الفن البديع في تلاوة الشيخ محمد رفعت ، والشيخ مصطفي إسماعيل والشيخ عبدالباسط عبد الصمد للقرآن ، أو في إلقاء النقشبندي للتواشيح الدينية ؟

يقول الإمام محمد عبده :

"وقد أرشدتنا التجربة إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الإسلامي كان أوسع نظرًا في الأمور ، وأطهر قلبًا من التعصب الجاهلي ، وأقرب إلى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر. وإنما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه . وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله ، اللهم لمن يفهمها كما جاءت ، ويعرف معناها كما وردت" .

"إن القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم ، لا يختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة . ولكن عرض على الدين زوائد دخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه ، فأفسدوا قلوب أهاليه . ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر" .

"أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا مربيا يأخذهم بدينهم ، فحرموا خيره ، ولم يبق عندهم إلا ما فيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين وليس بدين" .

وإذا انتقلنا للوقت الحاضر فأين يمكننا أن نضع أحمد زويل ؟

لنقرأ ما كتبه عن حياته في كتاب عصر العلم:

"كانت البداية في مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة في دلتا مصر" .

"ومدينة دمنهور مدينة فرعونية قديمة يعتقد أنها كانت تضم معبدًا لعبادة إله الشمس ، الإله حورس ، ثم تحور الاسم مع الزمن ..." .

"ومن ناحيتي فقد أخذت نصيبًا من شمس حورس والتي كانت قد أرسلت بأشعتها لتصافحني لحظة ميلادي فامتلأت نفسي بالتفاؤل .." .

"ولمسجد سيدي إبراهيم الدسوقي أهمية خاصة في حياتي ، فقد حدد هذا المسجد معالم طفولتي المبكرة فقد كنت ورفاقي من الأطفال نجد أنفسنا منجذبين إلى المسجد للصلاة والمذاكرة ، وقد شكل هذا المسجد بالفعل نواة للدراسة الجدية في ذلك العمر .. ومن ثم فقد شكل المسجد محور حياتي وحياة أهل المدينة كلها " .

"وكنا نعيش في ظل تعاليم الدين البسيطة والسمحة والمستنيرة وليس في ظل التشدد والجمود الذي ظهر فيما بعد" .

"وبهدف الترويح عني وإدخال البهجة والسرور في نفسي كان خالي (رزق) يصطحبني معه في رحلاته إلى القاهرة لحضور حفلات أم كلثوم الغنائية ، تلك السيدة التي احتلت بعد ذلك مكانة بارزة في حياتي ، وإذا ما كان هناك شيء محدد له دور ثابت في إدخال البهجة في نفسي وخاطري فهو أم كلثوم .." .

أليس في هذا امتداد رائع للطهطاوي وعبده وطه حسين ؟ حيث الانتماء للأرض والأجداد واضح ، والإيمان مجدول في قوام الحياة البسيطة السمحة المستنيرة ، والعلم غاية والفن يغزل كل هذا في ثوب من البهجة الإنسانية المتحضرة .

ترى ، هل نفهم ونعي دعوة أئمة التنوير في حياتنا من رفاعة وحتى زويل ؟ أم أننا نسير وراء الدعيّ زكي جمعة فننعم بتشكيلة جميلة من الجهل والتخلف؟

منه لله زكي جمعة وأعوانه من المدعين الذين يحاولون تشويه الإيمان فيفصلونه عن الحضارة ليجعلوا من بيوت الله منابر للتطرف والعنف والانغلاق والتقوقع بدلًا من أن تكون منارات للعلم والسماحة والرحمة والتقدم .

لدينا الآن فرصة عظيمة ، وإضافة واجبة يجب علينا القيام بها تجاه أنفسنا وتجاه الحضارة الإنسانية ، فمصر بمثقفيها وعلمائها مطالبة بوضع قواعد للتناغم بين الإيمان والحضارة ، ولنا في هذا سابقة عظيمة علينا دراستها جيدًا وتطويرها لتناسب العصر ثم تقديمها للعالمين ، وهذا لن يحدث إلا بتضافر جهود علماء الدين المصريين مع المثقفين المصريين ؛ فالكل في حقيقة الأمر، يقف في خندق واحد ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف .

يقول د . مصطفى محمود ، ونقول معه :

"هل يمكن للإنسان المصري أن يضيف شيئًا لهذه الصيحة المدوية التي هي عنوان العصر .. صيحة العلم والتكنولوجيا والكمبيوتر والفضاء."

ويجيب :

"نعم أعتقد أننا نستطيع أن نضيف الخبرة التي استقيناها من سبعة آلاف سنة من الحضارة .. نضيف إلى العلم بعدا ثانيا هو الأخلاق الإيمانية الكريمة ونضيف إليه نقاء التوحيد" .

وقد تكون القواعد التي تستند عليها دعوتنا هي :

- الإيمان الصحيح بالله هو إيمان بالحق والعدل والخير والسلام لكل البشر من "خلق الله" .
- الأوامر الإلهية في التفكر والتدبر والسعي هي في ذاتها الدافع الأساسي لتحقيق حضارة إنسانية متطورة ومستمرة .
- الحرية فكرة أساسية سعت إليها كل الأديان .
- العلوم والفنون والآداب في حد ذاتها وسائل إنسانية للوصول إلى الحق والخير والجمال .
- يجب أن تتوقف فكرة القتل والترهيب والترويع باسم الإله .

مصر لن تقوم وتزدهر إلا بأبنائها المصريين ، والمصريون لن ينهضوا بأمتهم إلا حال انتمائهم لها وعملهم على رفعتها وسلامتها ورخائها ، فلنمد جذورنا في أرضنا ولنستشرف مستقبل مصر ، منارة وحضارة ومحبة وسلامًا وعدلًا وحرية ، فتفيض بنورها على أبنائها وعلى العالمين .

اطفي يا دموع الحزن

قيدي يا شموع الفرح

بكرة يفيض الجرن

والجرح يطرح قمح

يا عين يا ليل ولدي

يا ليل يا عين بلدي

مرفقات

مرفــق 1

مقال نشر في جريدة أكتوبر قبل زيارة أوباما بأسبوعين

عزيزي أوباما

منـذ أعلنـت عن زيارتك إلـى القاهرة لتلقـي خطابا أو رسـالة موجهة للعالم الإسـلامي وأنـا حقيقـة في حيـرة ، فمع إيمانـي الكامل بأن "مصر" هـي المكان الأمثل لإلقاء مثل هذا الخطاب ، ومع كامل الترحيب بك في وطنك الأول مصر (قرأت أنك كنت تنسب نفسك إلى مصر عندما تسأل عن أصولك وأنت صغير) فاسـمح لـي بأن أنقل لـك بعض الهواجـس التي تقلقنـي . منبع هـذه الهواجس هـو مـن تكرار الفهم الخاطئ لـدور وماهية مصر وبالتالي لمـا يمكن أن تقبله أو ترفضـه ، فشـخصية مصـر وهويتها كما تعلم قـد تكونت على مدى سـبعة آلاف من السـنين وكما نقول في مثلنا الشـعبي "ياما دقت على الراس طبول" ، جيوش وممالك وحروب ومطامع كلها جاءت وراحت وبقيت مصر ثابتة كالأهرامات ، واثقة كأبي الهول ، ومتدفقة في سـكون كنهر النيل . يقلقني كثيرًا رؤية مبتورة أو غيـر صحيحة قد يترتب عليها نظرة خاطئـة ، وبالتالي خطاب يخطئ أهدافه التي نرجوها جميعًا في صالح مصر والمنطقة والدول الإسلامية والعالم أجمع .

دعني هنا أطرح عليك 3 نقاط حاكمة:

1- **أهمية الليبرالية المصرية:** أخشـى ما أخشـاه هو توجيه خطاب ديني من ملك مسيحي إلى ملوك المسلمين يدعوهم فيه للسلام والمحبة بعد أن شن سلفه حربًا صليبية جديدة ضد الدول الإسـلامية . فبرغم ما يبدو على سطح مصر مـن بثور أصوليـة دينية عالية الصوت فلتعلم عزيـزي أوباما أن مصر المدنية

الليبرالية والتي التزمت بفهم سمح ووسطي للإسلام نابع من الأزهر، وفهم متميز ومتفرد للمسيحية نابع من الكنيسة القبطية هي التي قادت وأثرت في المنطقة والعالم الإسلامي، وهي القادرة على استمرار لعب هذا الدور ودفعه للخير والتقدم بشرط استمرار مدنية الدولة وتوجهها الليبرالي. مصر لم تكن أبدًا دولة دينية ولا يجب على الإطلاق مخاطبتها بهذا المنطق الذي يرى فقط بثورًا من حمى الهوس الديني المتطرف يجب أن تزول في أسرع وقت حتى تعود مصر لتتبوأ دورها ومسئوليتها في الحضارة الإنسانية.

يمكنك قراءة ثلاثية نجيب محفوظ أو مشاهدة أفلام الثلاثية والتي سوف تعطيك فكرة هذه الحقبة الرائعة في تاريخ مصر والتي امتدت 100 عام كما أنها ستعطيك فكرة عن الفن المصري.

2- **خطورة الرؤية الدينية للمشكلة الإسرائيلية الفلسطينية:** مادامت الرؤية الدينية مستمرة وحاكمة لكلا الطرفين فلن تحل مطلقا المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية، فالاعتقاد الإسرائيلي التوراتي بوجوب احتلال بني إسرائيل للأرض الواقعة من النيل للفرات سيجابهه في الحال الاعتقاد الإسلامي بوجوب تحرير أولى القبلتين وثاني الحرمين، وبالتالي ستصبح أي معاهدات واتفاقيات هي في واقع الأمر مسكنات وقتية للمشكلة سيتم خرقها حالما يرى أحد الأطراف قدرته على تحقيق رؤيته الدينية. طبعًا هذه الرؤية الدينية تستتبع اتساع جبهة القتال لتشمل المنطقة والدول من العراق وحتى مصر، وقد تستتبع أيضا دخول الدول المسيحية المؤمنة بوجوب تحقيق هذا الوعد بجانب إسرائيل بينما الدول الإسلامية ستقف بجانب دول المواجهة الإسلامية، وهكذا سيغرق العالم مرة ثانية (أو رابعة) ضحية لتفسيرات دينية تدعو لاستمرار الحروب بين البشر بدلًا من الرحمة والخير والسلام. لهذا يجب العمل على رؤية المشكلة على أنها مشكلة

بشرية بالأساس ، مشكلة شعبين يعيشان على أرض واحدة وكيف يمكن أن يعيشوا بسلام إلى أبد الآبدين .

دعنا نحاول سيدي مواجهة الأمر ونزع الفتيل الديني المقدس المدمر من هذه المشكلة فـ الله محبة ، رحمن ورحيم وليس من المقبول تفسير وعوده للبشر على أنها تستوجب الاحتلال والقهر والحروب واستمرار شلالات الدم .

3- توضيح دور الولايات المتحدة في دعم الأصولية الإسلامية: سعدنا جميعًا برؤيتك توقع قرار إغلاق معتقل جوانتانامو ، ويهمنا أكثر ضمان عدم افتتاح جوانتانامو ثان وثالث في المستقبل .

إن ما نقرأه عن قيام الولايات المتحدة بتشجيع وتمويل المنظمات الأصولية والجهادية لمجابهة الخطر الشيوعي الذي كان ، وما نراه من استمرار الاتصال بمثل هذه الجماعات تحت دعاوي المعرفة والتشاور لهو أمر يحتاج منك إلى المزيد من الشفافية والتوضيح .

اسمح لي أن أعود هنا مرة ثانية إلى مصر ، فقد اكتوت مصر بنار هذه التيارات وما زالت تجاهد للخروج من النفق المظلم الذي يبدأ بالأفكار المنغلقة وينتهي بالقنابل والإرهاب .

لا يعقل تحت أي دعاوي استمرار السياسة التي أدت لفتح جوانتانامو والتي ستؤدي إلى استمرار وجود قواعد للإرهاب الديني (الفعلي أو الفكري) في المنطقة والعالم . إذا كانت الولايات التحدت قد رأت في وقت من الأوقات أن مصلحتها تقتضي تنمية مثل هذه التيارات والتنسيق والتشاور معها فأنا أعتقد أنه من الواجب عليك الآن إعلان ذلك بوضوح وتفصيل الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في تغذية هذه التيارات مع التعهد بالتوقف عن هذا مستقبلًا ، سيساعدنا هذا كثيرًا على الخروج من النفق .

أهلا بك مرة ثانية .

مرفـــق 2

الجدول 5/ 2 مواطنية الاتحاد الأوروبي

المادة	الحقوق العامة	المادة	الحقوق الانتخابية
8 أ	كل مواطـن مـن الاتحـاد لـه الحق فـي الانتقـال والإقامة بحريـة داخل أراضـي الدول الأعضاء .	8 ب 1	كل مواطـن مـن الاتحـاد مقيـم فـي دولـة عضـو لا يحمـل جنسيتها له الحق فـي التصويت والترشـيح للانتخابـات البلديـة فـي الدولـة العضـو التـي يقيم فيها .
8 ج	كل مواطن من الاتحاد يوجد في أراضي بلد ثالث ليس فيها تمثيـل للدولـة العضـو التـي يحمل جنسيتها، سوف يكون له حق الحصول على الحماية من السـلطات الدبلوماسية أو القنصلية لأي بلد عضو.	8ب2	كل مواطـن مـن الاتحـاد مقيـم فـي دولـة عضـو لا يحمل جنسـيتها لـه الحق فـي التصويـت والترشـح لانتخـابات البرلـمـان الأوروبـي فـي الـدولة العضو التي يقيم فيها .
8 د	كل مواطـن مـن الاتحـاد لـه الحـق في أن يقـدم عريضـة للبرلمـان ... كل مواطـن مـن الاتحـاد يمكنـه تقديـم طلـب للمحقق الرسـمي في الشكاوى.		

مرفـق 3

حـوار مع

د . أحمد جويلي رئيس مجلس الوحدة الاقتصادية العربية السابق

* أليـس غريبًا ألا يضـم مجلس الوحدة الاقتصاديـة العربية دولة من دول الخليج العربي ؟

الخليـج له اهتماماته الخاصة ؛ فدولة تشـعر أن لديهـا الإمكانيات والحماية والمال ليســت في حاجة إلى مثل هذا المجلس .. "ببساطة كدة الخليج مستغني عـن العـرب ، واحـد معـاه فلوس وعنـده نـاس معتقد إنهـا بتحميـه يحتاجنا في إيه؟!".

* ماذا تقصد ؟

أقصد أن دول الخليج العربي لديها المال ولديها أمريكا بقواعدها العسـكرية فـي المنطقـة ، والتي يظنون أنها تحميهم .. فقد كانوا من قبل ينتظرون الدعم من مصر أو أن ترسـل لهـم فرقة عسـكرية ، أما الآن فالوضع تغير وأصبح لديهم ظهر أقوى بل هم من يساعدوننا الآن .

* وماذا عن دول المغرب العربي ؟

دول المغـرب هــي أقرب إلــى أوروبا منهـا إلى المشـرق العربي فـي الثقافة والانتماء والاقتصاد ، فالعلاقات مع أوروبا أفضل من العلاقة مع العرب.

* يعني مفيش عرب ؟

وميــن قالك إن فيه عرب ؟! إنتي لســه مصدقة إنهـا أمة عربية واحدة ؟! الأمة العربيـة الواحـدة هي التـي يكون ولاؤهـا واحـدًا .. لا أن يكـون ولاء مجموعة

لفرنسا وأخرى لأمريكا ومجموعة تقف في المنتصف تائهة لا تعرف لمن تنتمي ومشغولة بمشاكلها الداخلية .

*** ولماذا خرج كل من الكويت والإمارات وليبيا من عضوية المجلس ؟**

الكويت خرج بعد خلافه مع العراق ، والإمارات وجدت في انضمامها إلى دول الخليج ما هو أفضل ، أما ليبيا فكانت تطمع في منصب معين في المجلس ، وعندما ذهب لدولة أخرى انسحبت من المجلس .

*** إذن العرب لديهم ميول للانفصال ولم يكن الرئيس السادات هو من فرقهم باتفاقية السلام مع إسرائيل ؟**

السادات لا علاقة له بما يحدث ، فهو كان مجرد شماعة لتعليق أخطاء العرب ، ومصر طالما دفعت رغبة منها في لم شمل العرب ، ومازالت هي المحور والقلب النابض للمنطقة وهذه حقيقة ....

عن المصري اليوم

2 يونيو 2010

مرفــق 4

منــذ بــدأت أعمل وأنــا أعتقد أن لــي قضية.. قضيتــي هي التاريــخ الغائب أو المفقــود.. النــاس الذين نراهم في الشــوارع والبيوت.. فــي الحقول والمصانع.. لهم تاريخ.. هؤلاء الناس أغنوا الإنســانية.. كيف نعيدهم للدور نفسه. كيف نستعيد مساهمتهم الإيجابية والقوية في الحياة.

لابــد أولًا أن يعرفــوا من هم؟ ومــاذا كانوا؟ وماذا قدمــوا؟ لا بد أن نصل بين إنسان اليوم وإنسان الأمس لنقدم إنسان الغد.

هذه هي قضيتي.

شادي عبد السلام

المخرج الكبير وصاحب فيلم المومياء



تصميم الغلاف: حسين جبيل

لم كانت دائمًا الأولة مصر!!

ولم ستظل رغم كل شيء مصر!!

ما السر الكامن في أرض مصر .. وعبقريتها؟!

سجلت أحداث تاريخ مصر أن شعبها عاش فوق أرضها 2996 عامًا من القهر .. ورغم ذلك ظل متلاحمًا بها .. عاشقًا لها .. يتأرجح معها من فترات مد حضاري وديني .. فترتقي سلم المجد .. وفترات ينحسر فيها ذلك المد .. فتظل قابعة تحت وطء القهر والاستعباد.

أين مربط الفرس مادام طرفا المعادلة : مصر وشعبها لم يتغيرا!!

هل حدث للإنسان المصري تجريف مثلما يحدث لأرض مصر!!

هذه حدوتة مصرية من أربع حلقات متتابعة ، تظل حريصة على أن تكون بدايتها مؤكدة لقناعتها بأن مصر دائما في قمة الاهتمام وأنها دومًا البداية..





